ملـــحـــق

بحوث الندوة التي أقامتها الكلية عن العلامة الشيخ محمود محمد شاكر بتاريخ ٢٤من ذي القعدة سنة ١٤١٨هـ ١٩٩٨/٣/٢٣م.

١- الأستاذ محمود محمد شاكر واللغة العربية اضافة وحراسة

أ.د/ صبحي عبد الحميد محمد

٢- الأستاذ محمود محمد شاكر مؤرخا

أ.د/ محمد جبر أبو سعدة

٣- الأستاذ محمود محمد شاكر ذكريات وتأملات

أ.د/ جودة مصطفي

٤- مدخل إلي منهج محمود محمد شاكر

د/ كمال عبد الباقي لاشين

٥- محمود محمد شاكر ومنهجه في تحقيق التراث

د/ محمود محمد الطناحي

٦- محمود محمد شاكر في الصحافة المصرية

د/ شعيب عبد المنعم مرسي

٧- قصيدة سماء الخلود

أ.د/ سعد عبد المقصود ظلام

الأستاذ/ محمود محمد شاكر
واللغة العربية إضافة وحراسة

بقلم أ. د/ صبحى عبد الحميد محمد

هذا البحث فى مقدمة وثلاثة مباحث :

المبحث الأول : إبداعه فى العروض

المبحث الثاني : إبداعه فى النحو واللغة

المبحث الثالث : حراسته للعربية

المقدمة :

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين وبعد

فحديثى الآن عن الأستاذ محمود شاكر واللغة العربية إضافة وحراسة وأستاذنا محمود بن مجد شاكر بن أحمد شاكر بن عبد القادر من أسرة أبى علياء من أشراف جرجا وينتهى نسبه بالإمام الحسين بن على وذاك نسب شريف فيه البركة وفيه الخير كله وأسرته لها بالأزهر صلة بل صلات فوالده وكيل الجامع الأزهر ومنشئ معهد الإسكندرية الدينى، وإخوته منهم من تعلم فى الأزهر وعمل فى القضاء الشرعى ولقد حرص أستاذنا على اللغة العربية أشد الحرص فمنحها حياته وأخلص لها ونافح عنها وتعلق بها أشد ما يكون التعلق وشغف بها حبا استكن فى أعماق نفسه حتس صارت الكلمة عنده هى الحياة نفسها كما قال فى كتابه أباطيل وأسمار وهى نفسه وعقله وفكره وسر وجوده ووجود ما حوله وهذا الهيام بالعربية خلع على بيانه سمات وخصائص تفرد بها بين أدباء عصره ولذلك لا نعجب إذا وجدناه يضيف إليها ويذود عن حياضها ويرد الأخطار التى تستهدفها ويكشف الخطط الرامية إلى تدميرها أو إضعافها

كالدعوة إلى اصطناع العامية أو الكتابة بالحروف اللاتينية ونحوهما من الدعوات التى يجب أن ينظر إليها على أنها دعوات مرتبطة بدوافع سياسية.

إنه نظر إلى العربية فى عصره فوجد أنها صارت أجنبية فى بلادها غريبة عن لسانهم بعيدة عن أذواقهم لا يحسنون النطق بها إذا تكلموا ولا الكتابة الصحيحة إذا كتبوا وهم لا يفهمون أمهات المراجع والمصادر التى خلفها الأجداد ثم جل المصاب حينما جهل بعض العلماء المحدثين قواعدها ونواحى القوة فيها بل إن بعضهم قد استداروا فانهالوا عليها تجريحا ونسبوا إليها المعايب والمثالب وردوا إليها أسباب ضعفهم وانقطاع الوشائج بينها وبينهم.

فانبرى يدافع عن حياض اللغة ومكنوناتها مبينا أن النهضة تبدأ من الثقافة والحضارة ولا ثقافة ولا حضارة بغير لغة قومية قادرة دائما على التجدد والعطاء يعرف أبناؤها حقها عليهم وحقهم عليها».

فما أخلص ضميره إنه هاله أن يردد أبناء هذا الجيل صباح مساء أن اللغة العربية واحدة من مقومات وحدتنا ثم لا يبالون بالهوان الذى تلقاه تلك اللغة فى معاهد التعليم وفى وسائل الإعلام فهى كما قال الشاعر شوقى هيكل:

شعب هذى الأمة ارتد بها	عن فصيح القول عن أحكام دينه
فتك المستعمر الباغى به	خانقا فيه شرايين وتينه
هجر الفكر لسانا وهدى	ومشى بهذى بافواه بطونه
رحمة الله على الفصحى فما	وبيانا كم زهونا برصينه

لقد رأى حال لغة قومه فنهض بها إضافة وحراسة فهو كما قال شوقى هيكل

عاش للكتْب حفيظا دارسا	يحمل العلم خبيرا بفنونه
يبعث الماضى تراثا عاطرا	ينهلُ الخلدُ وشذى من معينه
كونُه علمٌ وفكرٌ وتقى	وكتابٌ خطُّه حرٌ يمينه

المبحث الأول

التجديد في علم العروض

فى كتابه نمط صعب ونمط مخيف وبدءا من أول الصفحة الخامسة والثمانين إلى السادسة عشرة بعد المائة وتحت عنوان على هذا دار القمقم كان التجديد فى علم العروض لأستاذنا المرحوم محمود محمد شاكر.

لقد بدأ حديثه عن العروض ببيتين لأبى العلاء هما:

تـولّى الخليـــــل إلى ربِّــــــهِ وخلّـى العـــروض لأربابهـــــا

فليس بذاكِـــر أوتادِهـــا ولا مرتج فضـــل أسبابهـــا

والذى حفزه إلى الكتابة فى العروض أمران : الأولَ أن الوزير الأندلسى أبا عبيد البكريِ ذكر من قصيدة تأبط شراً التى مطلعها: إن بالشعب الذى دون سلّع لقتيلاً دمه ما يطَل ذكر منها أبياتا فى كتابه اللآلى فى شرح أمالى القالى ثم قال:

وهى قصيدة ونمط صعب ثم استعارها من أبى عُبيد الدكتور عبد الله الطيب فى كتابه المرشد إلى فهم أشعار العرب وجعلها صفة لثلاثة من بحور الشعر النادرة فى الاستعمال وهى المديد العروض الأولى والثانية وبحر الخفيف الثانى وبحر البسيط الثالث ثم ذكر فصيلة الأستاذ المرحوم أن الدكتور الطيب وصف المديد الأول بأن فيه صلابة ووحشية وعنفا وأن أبا العلاء قال إن المديد غير نجيب فقال:

إذا ابنا أبٍ واحدٍ ألفيا جوادا وعيرا فـــلا تعجبِ

فإن الطويل نجيبُ القريض أخوه المديدُ ولم ينْجبِ

ثم ذكـر أن العروضين ذكـروا الأسبـاب والأوتاد والمصطلحات فى أول كتبهم فى علم العروض ثم أغفلوا ذلك إغفالا تاما عندما نظروا فى البحور وأنه ما كان يجب أن يكتب فى العروض إلا أن الأستاذ الحسانى حسن عبد الله رغبه فيه بجدله ومناقشاته وهذا الأمر هو الأمر الثانى الذى دفعه إلى الكتابة فى

علم العروض.

يقول في بداية إبداعه حاولت أن أرتب ما ظهر لى في دوائر الخليل ترتيبا آخر وأن اسمى كلّ وتد باسم طبقا لموقعه من الجزء فالأجزاء التى تبدأ بالوتد أربعة وهى الأصول الأربعة التى يدور عليها العروض كله وسميت الوتد المبدوء به بدءا . . . وهذا بيانها:

فعولن مفاعيلن مفاعلتن/ فاع لاتن.

ثم قال أما الفروع مقسمان: قسم ينتهى بوتد وقسم يتوسط الوتد بين سببيه ثم قال: والأجزاء التى تنتهى بوتدٍ أربعة . . . وسميت الوتد فى هذا المكان طرفا وهذه هى:

فاعلن مستفعلن – متقاعلن. مفعولات

وأما الأجزاء التى يتوسطها الوتِد/ فاتنان

فاعلاتن – مس تفْع لن

ثم قال : وأرجح الآن ترجيحا يشبه اليقين أن هذا الذى ذكرته آنفا بهذا الترتيب وبهذا الاسم هو الذى كان فى كتاب الخليل ويلاحظ أنه وزن قصيدة نأبط شرا بالتفاعيل فى دقة متناهية وبالتجريد أى بالحركات والسكنات ورسم الدوائر الخمس يصور فيها إبداع نتحدث عنه فيما يخص دائرة المختلف وتترك الباقى لمن أراد فى صفحات الكتاب من الصفحة الحادية والعشرين إلى نهاية الخامسة والعشرين ثم علق على إبداعه فى استخراج البحور من الدوائر ملتمسا العذر للخليل فقال: ولكنه ساقه (أى الاستخراج) سياقة واحدة بغير بيان لموقع الأوتاد والأسباب طلبا للاختصار وهذا شأن كل من يضع أصولا جديدة لعلم لم يسبق إليه فماظنك بصاحب هذا الجهد الخارق.

ثم عتب على العروضين فعال ولكن العروضين شغلهم ضبط هذا العلم . . . . .عن مراد الخليل فى تقسيم الفروع والأصول فاستحسنوا أن يجعلوا هذه الأجزاء العشرة ثمانية فى اللفظ وعشرة فى الحكم . . . .

وإنما فعلوا ذلك لأن الخليل فيما أظن لم يبين باللفظ المكتوب ما ينبغى أن يكون عليه العمل عند النظر فى دوائر ولا ألح على بيان موقع الوتد فى أجزائه العشرة التى وضعها ثم انتقد تأليف المديد عند الخليل فقال: جعل أى

الخليل أصل بحر المديدفاعلاتن فاعلن فاعلاتن فاعلن وجعله واجب الجزء ثم قال : وأنا أعد ما فعله العروضيون فى جعل الأجزاء العشرة ثمانية فى الرسم عملا غير صالح أضر بالعروض إضرارا شديدا.

ثم قسم البحور ثلاثة أقسام نوجزها فيما يلى: بحور مركبة من الأصول الأربعة ولا يخالطها شئ من القروع وهى جميعا الوتد فيها بدء وهى خمسة أبحر كل بحر منها تقوم عليه دائرة من الدوائر الخمس وهى الطويل والواقر والهزج والمضارع والمتقارب.

وتالقسم الثانى بحور مركبة من بعض فروع هذه الأصول الأربعة ولا يخالطها شئ من الأصول وهى جميعا الوتد فيها طرف وهى البسيط الكامل والرجز والسريع والمنسرح والمقتضب.

والقسم الثالث بحور مركبة من بعض فروع الأصول الأربعة ولا يخالطها شئ من الأصول وهى جميعا الوتد فيها وسط وهى الرَمل والخفيف والمجتث فهذه أربعة عشر بحرا شذعنها بحر المديد.

وفضيلة الأستاذ المرحوم بفعل هذا كله ليبين مالم يبينه أحد بالنسبة لقول السابقين عن المديد إنه نمط صعب أو فيه ثقل فقد بين سر الثقل فيقول عن المديد عند الخليل إنه مركب من فرعين لا يخالطهما شئ من الأصول وأحد الفرعين وتده وسط والثانى وتده طرف فجاء مخالفا للأصل الذى سار عليه فى البحور من اتفاق صفة الوتد فى كل بحر فيها ثم يعلق على المهمل من البحور فى دوائر الخليل فيقول وقد عجبت لذكر الخليل هذا المهمل فى دوائره ولكنى لاحظت بعد التأمل أنه إنما نص على هذا المهمل لفائدة ولكن أصحاب العروض أهملوا النظر فى أمره.

فهذا المهمل إذا كان مركبا من أجزاء كلها أصول ففرعه أو فرعاه جميعاً قد تكون بحورا مستعملة داخلة فى الدائرة وإن كان أصلها خارجا من الدائرة لا يستعمل وإذا كان هذا المهمل مركبا من الفروع فربما كان أصله داخلا فى الدائرة مستعملا.

ثم ذكر ما يخص دائرة المختلف من ذلك ليبين سبب ثقل المديد فبين أن فاعلاتن الوتد فيها وسط وأن فاعلن الوتد فيها طرف فكان ينبغى أن يكون مهملا لاختلاف أوتاده وإنما حق المديد أن يكون الفرع الأول من بحر الطويل:

فاعلن مستفعلن فاعلن مستفعلن. فأوتاده كلها أطراف وهذه الصورة فى الحركات والسكنات كما سبق إلا أنها لا تختلف فيها الأوتاد فلو كتبناه:

فاعلا تن فاعلن فاعلا تن فاعلن

لرأيت أن مكان الوتد وإن كان فى فاعلاتن وسطا وهو علا إلا أنه وقع فى موقع الوتد الطرف

وبين أن البحر يشرح على ذلك فنقول:

اعلمـــوا أنى بكم حافـــظ شاهـــدا ما كنت أوغائبـــا

فاعلن مستفعلن فاعلن.. فاعلن مستفعلن

ونديو الباقى عليه فالذى جعله صحيحا نحو بالبكر أنشروا لى كليبا يقال إن فيه ترفيلا فى العروض والضرب وهذا ما حعل الخليل يهمل هذا الفرع إذ إنه لايقع إلا فى بحر الكامل فى ضربه إذا كان مجزوءا.

ومن مصطلحاته فى العروض أنه سمى الجزء الأول الصوت أوحادى النغم والجزء التالى له الصدى أو المجيب

ثم إننى على الخليل فقال فأيّ رجل كان الخليل وأىّ أذن وأى حس وأيّ عقل ضابط كان عقله: وبهذا كله أثبت أن الشعر العمودى سهل ممكن فعال ودع عنك بالمرة عواه مات الشعر العربى مات مات وفى ذيله سبع لفات وفى صفحة ٢٨٢ قال أستبعد أن يكون أراد بحر المديد والمكون من فاعلاتن فاعلن فاعلاتن فإن صعوبته دعوى لايقوم عليها دليل وأجزاؤه مشابهة لبعض المشابهة لأجزاء بحر الخفيف فلم يبق إلا ما وصفت لك: من طابع هذا البحر ومن سطوته على الأداة وهى اللغة وسطوته على الشاعر وهو المترنم وما قلت من أن أنغامه المتمردة توجب على المترنم أن يكون فى حال مطيقة لاحتمال سطوته وعنوه بلا ذل فى خضوع ولا تصعضع فى لين ثم يقول فإن لم يكن المترنم قادرا مطبقا انقلب عليه البحر وتفلت منه ولقد نبه إلى أن الوتد كله لا يسقط إلا فى الكامل والسريع

جزى الله شيخنا خيرا فقد كان قمة فى التواضع فقد قال فى تحقيق تهذيب الآثار لأبى جعفر الطبرى مسند عبد الله بن عباس أسأل الله أن يتقبل عملى وأن يغفر زللى وأن يؤيدنى بحوله وقوته وأن يجرى على لسان عبد صالح دعوة صالحة مستجابه

المبحث الثاني إبداعه في النحو واللغة

اولا مدحه للنحو والنحاة

قال فى كتابه قضية الشعر الجاهلى فى كتاب ابن سلام ص ٨٧ تعليقا على الفقرة الرابعة عشرة نعم كان أكثر الذين ذكرهم فى هذا الموضع نحاة أئمة ولكنه لم يرد نحوهم بل أراد علمهم بالشعر، والناس قديما وحديثا يتوهمون أن النحاة بمعزل عن الشعر وروايته وإذا صح هذا فى زمن متأخر فإن ذلك الزمان الأول قاض على النحاة بأن يكونوا بالمنزلة العليا من علم الشعر ومن روايته فإنهم حين أرادوا أن يضعوا للعربية نحوا جامعا على غير مثال سابق لم يكن لهم إلى ذلك سبيل إلا بتتبع كلام العرب جميعا على اختلاف منازلهم واختلاف لهجاتهم.

ثم قال عن سيبويه أسس علم النحو فريدا غير مقال سابق وفى أول كتاب بحر جامع طارت شهرته فى الآفاق منذ عرقه الناس.

وقال فى المتنبى: فالصبى الكبير (طه حسين) يهزأ مزهوا بالخليل وسيبويه وفلان وفلان ولو بعث أحدهم من مرقده ثم نظر إليه نظرة دون أن يتكلم لألجمه العرق ولصار لسانه مضغة لا تتلجلج بين فكيه من الهيبة وحدها لا من العلم الذى يستخف به ويهزأ»

ثانيا: إبداعه فى النحو

ابتكر فى النحو العربى تحديد الأزمنة وتوضيحها حيث جاءت فى كتاب سيبويه مجملة وأسئ وتفسيرها فيما بعد ولم يفسرها كما أرادها سيبويه إلا الأستاذ محمود شاكر.

فسيبويه فى الكتاب ١ ، ٢ يقول وأما الفعل فأمثلة أخذتمن لفظ أحْداث الأسماء وبنيت لما مضى وما يكون ولم يقع وما هو كائن لا ينقطع ثم جاء عبدَ القاهر فى المقتصد فقال لا نعلم أحدا أتى فى معنى هذا الكلام بما يوازنه أو بدانيه ولا يقع فى الوهم أيضا أن ذلك يستطاع ثم ذكر كلام الفارسى والفعل

ينقسم بأقسام الزمان ماض وحاضر ومستقبل وليس بخفى ضعفُ هذا فيجنبه وقصوره عنه ولم يبين لنا سبب الضعف ولم يفسر كلام سيبويه.

فجاء الأستاذ شاكر فقال محدداً ومجددا: فى كتابه رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا ص ١٢ ومابعدها فسيبويه حين حد الفعل فى أول كتابه لم يرد أمثلته التى هى عندنا فعل ماض نحو ذهب ومضارع نحو يذهب وأمر نحوا ذهب بل أراد بيان الأمثلة التى تقترن بهذه الأمثلة كيف هى فى لسان العرب فجعلها ثلاثة أزمنه:

فالزمن الأول هو المقترن بالفعل الماضى الذى يدل على فعل وقع قبل زمن الإخبار به كقولك ذهب الرجل ولكن يخرج منه الفعل الذى هو على مثال الماضى أيضا ولكنه لا يدل على وقوع الحدث فى الزمان الماضى نحو قولك فى الدعاء غفر الله لك فإنه يدخل فى الزمن الثانى . . .

وأما الزمن الثانى فهو الذى عبر عنه سيبويه بقوله وما يكون ولم يقع وذلك حين تقول أمرا أخرج فهو مقترن بزمن مبهم مطلق معلق لايدل على حاضر ولا مستقبل لأنه لم يقع بعد اخرج ولكنه كائن عند نفاذ الخروج من المأمور به ومثله النهى حينما تقول ناهيا لا تخرج فهو أيضاً زمن مبهم مطلق معلق وإن كان على مثال الفعل المضارع فقد سلب الدلالة على الحاضر والمستقبل لأنه لم يقع ولكنه كائن بامتناع الذى نهى عن الخروج ومثاله أيضا فى مثال المضارع قلتل النفس يقتل والزانى المحصن يرجم فهما مثالان مضارعان ولا يدلان على حاضر ولا مستقبل وإنما هما خبران عن حكم ولم يقعا عند الإخيار بهما فهما فى زمن مبهم مطلق معلق وهما كائنان لحدوث القتل من القاتل عند القصاص وحدوث الزنا من الزانى المحصن عند إنفاذ الرجم ويدخل فى هذا الزمن أيضا نحو قولك غفر الله لك فى الدعاء وهو على مثال الماضى فإنك لا تريد إخبارا عن غفران مضى من الله سبحانه ولكن تريد غفرانا من الله يكون ولكنه لم يقع ونرجو بالدعاء أن يقع.

وأما الزمن الثالث فهو الذى عبر عنه سيبويه بقوله وما هو كائن لم ينقطع فإنه خبر عن حدث كائن حين تخبر به كقولك : محمد يضرب ولده فإنه خبر عن ضرب كائن حين أخبرت فى الحال ولم ينقطع الضرب بعد مضى الحال إلى الاستقبال ويلحق بهذا الزمن الثالث أيضا مثال الفعل الماضى كقوله تعالى وكان الله غفورا رحيما فهو خبر عن مغفرة كانت ولا أول لها وهى كائنة أبداً

لا انقطاع لها لأنها من صفات الله سبحانه هو الأول والآخر ثم يقول عن حديث سيبويه المجمل عن الزمن فهى جملة محكمة شديدة الإحكام

وقال: فى نمط صعب ص ٢٢٧ قد تقرب الفعل الماضى من الحال أى من وقت التكلم والفعل الماضى يدل على الزمن البعيد ويحتمل الزمن القريب أيضا فإذا قلت نام أخوك فهو محتمل للزمنين فإذا قلت قد نام أخوك انحدر الماضى حتى يدنو دنوا شديدا من الحاضر.

وقال فى الصفحة نفسها عن الفاء حينما تدخل على الماضى عدة مرات (تحرك الزمن فى الفعل الماضى وتمده وتمطه حتى تبلغ به أول الزمن فى الفعل الذى بليه وهكذا دواليك حتى تنقطع الفاءات ثم قال وهذا الذى وصفت زيادة على ما يقوله النحاة من أن الفاء تفيد مجرد الترتيب ومن نأمل الفاءات فى كتاب اله سبحانه رأى عجبا

وفى ص ٢٢٥ ونمط صعب ذكر أسلوبا مرفوضا فى استعمال لَمّا فقال:

تغير جائز أن تقول لما يفعل ذلك ثم فعله فهذا تكاذب ومحال.

وفى ص ٢١٢ قال: فإنها تحمل معنى الحركة والتتابع واستشهد بما جاء فى سورة المدثر ثم قال: أما ما يقوله النحاة فى ثم من أنها حرف عطف يقتضى الترتيب والتراخى فهو نظر نحاة يحتاج إلى بيان.

وفى طبقات فحول الشعراء قال عن يكن فى قول الشاعر: فإن بك يرق فهو يرق سبحانه بك تامة لا تحتاج إلى خبر وإنما صلح ترك الخبر لأن العرب تضمر أخبار النكرات ومثله قوله تعالى: وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة» وفى البيت الذى جاء فيه حلت الخمر وكانت حلالا وبلأى ما ألمت تحل

فقد خطأ المرزوقى وأبا العلاء والتبريزى حينما قرأوه وبلأى ما ألمت وقالوا ما صلة أو مع الفعل بتقدير المصدر ثم قال:

والصحيح فى قراءة البيت ما أثبته وبلأْى ما ألمت بينهما سكتة لطيفة وما قد مضى تفسيرها فى المقالة الثالثة فى (طير مانابنا) وقلت هى حشو يأتى ليدل على الإعراض عن وصف الشئ بما ينبغى له من الصفات لأنك مهما بالغت فى الصفة فلن تبلغ كنهه وهذا الحشو يلزمك سكتة عند انشاده والترنم به ومجئ هذا الحشو أسلوب فى اختصار اللفظ يقضى إلى اتساع المعنى.وقال أيضا واو

رب لا تعطف شيئا أتى على شئ ماض بل تعطف مابعدها على شئ قاتم فى نفس المتكلم ولذا يفتتح بها الشعر بلا تقدم شئ قبله.

كما أنه أثرى الشواهد العربية وأبدع وجدد فيها (فى طبقات فحول الشعراء والسفر الثانى)

فذكر من دخول الألف واللام على الحال:

من أن يُرَى الشيخَ البَجَال وقَدْ يُهَادَى بالعَشيْه

وذكر من كون بالألف واللام عوضا عن الإضافة قول ذى الرمة

أشْعثَ باقِ رُمّة التَقْليد

وذكر من مجئ إلى بمعنى مع قول النابغة:

فلسْتَ بمستبق أخـا لا تلمُّـه		إلى شعث أى الرجـال المهذب

وذكر مجئ إن بمعني قدِ وكانِ بمعنى صار في قوله عُلَّفةِ بن عقيلِ بن عُلَّفه: لعمرى لئن كانت سلافة بدّلَتْ		من الرَملةِ العفراءِ قفلاً تزاوله

وذكر مجئ لكن بمعنى التحسر فى قول جرير:

لكن سَوَادَةُ يَجْلُو مُقْلَتَىْ لحِمِ		باز يُصَرصر فوق المربأ العالـى

وذكر مجئ مما للدلالة على معهود يكثر فعله فى قول شَبيب بن البرماء

ألم تَكُن زعمت بالله مُسْلِمةً		ولم تَكُنْ هى مما فَضَت الأربـا

وذكر مجئ من بمعنى بين كذا وكذا فى قول أبى زبيد

عَمَّا قليـل علَـوْن جُثّتَـهُ		فَهُـنَّ من والـغِ ومُنتهسِ

وذكر لام النسب فى قول أبى زبيد:

جاء ابن سلمى وللنجيبة سلمى		ولقـد تنْجُلُ النجيبَ النجيبُ

وذكر مجئ على بمعنى فى قول الفرزدق:

تميم بن زيد لا تكوننَّ حاجتى		يظهر فلا يَخْفَى عليك جَوَابُها

وذكر النسب إلى أسيد مصغرا مشدد الياء أسيدى فى شعر جرير

إن الأسيدى رِنباعاً وإخوتـــــه أزرى بهم لؤم جدات وأجـداد

وذكر الواحد يراد به الجمع فى قول امرئ القيس

إذا ما قام حالبهـــــا أرنّت كأن الحى صبحهـــم نعـــى

وفى شرح أشعار الهذلين ذكر قول أبى ذؤيب

تالله يبقى على الأيام مبتقـل جَوْنُ السَّراةِ رباعٍ سنه غَـــرِدُ

قال فى الحاشية فحذف لا كما فى قوله (امرئ القيس)

فقلت يمين الله أبرح قاعدا ولو قطعوا رأسى لديك وأوصالى

أى لا أبرح لأنه لا يلتبس بالإثبات فإن القسم إذا لم يكن به علامة الإثبات كإن واللام وقد كان على النفى .

ثـالثـا: إبـداعـه فى اللغـة

ذكر ألفاظا من اللغة أخلت بها المعاجم أو قصرت فى بيانها

ومن ذلك: أضاء بمعنى دخل فى الضوء، واختبَّ بمعنى اضطرب واهتز، والراب بمعنى الربب وهو الأرب والحاجة، ويِقرَّاب مصدر تقرّب، وأشرج

جمع شَرْج، والتَّمْداح مصدر مدح واقتصر إلى كذا بمعنى انتهى إليه، والقسّيس الذى يعلم خبايا أمور الناس، والاستعراض بمعنى الإقدام على الفعل، وفى صوته رِفاع أى رفاعة بمعنى الجهارة، ولكّاع بمعنى لكع، وتقوف المال حجره والسَّدامة بمعنى الندامة، والبديه بمعنى البديهة

والدُّيان على وزن جُهَّال جمع دائن، والأفناء بطن القبائل وهجَّاه يُهيجه بمعنى هجاه يهجوه، وأية بمعنى رسالة، واجتنى ذنبا بمعنى جناه، والشَّمّ والشّمام: التقبيل، وغرّق بمعنى غرق واستشطه بمعنى استنقذه.

وهذا كله من طبقات فحول الشعراء

أما كتاب نمط صعب فقد قال وهو يشرح مُسْبل فى الحى أحوى رفل «مسبل فى هذا الشعر إنما يعنى به فرسا عتيقا ضافِى السبب قد أسبل ذيله واختال اختيالا وقد أغفلته كتب اللغة من صفات الفرس وأخذ يستدل بقول

إمرئ القيس فى صفة الفرس:

ضليع إذا استدرتـه سـد فرجـه يضاف فويق الارض ليس بأعزل

نعى على المرزوقى والتبريزى وغيرهما أنهم جعلوا مسبلا من إسبال الإزار

وفى ص ١٩١ قال: وإما يجدى فقد ذهب المرزوقى وسائر الشراح إلى أنه من الجدوى وهى العطية وهذا لغو وفساد وإنما جملهم عليه اقتصار أصحاب المعاجم على هذا المعنى فقالوا أجدى فلان إذا أعطى عطيته ثم يقول: فينبغى أن يقال ههنا إنه من الجدا وهو المطر و«أجدى» أمطر كما قالوا من المطر أمطر وهو اشتقاق صحيح لاقادح فيه وهذا البناء بهذا المعنى لم تذكره كتب اللغة ولكنه ينبغى أن يقيد ويزاد عليها وشاهده من كلام العرب

غبث مزن غامر حيث بحدى

ويقول فى ص ١٩٤ يزاد فى معنى الأبل الباطش الذى إذا علقت مخالبه بشئ ولم تتركه لشراسته وقوته وهو معنى لم تذكره كتب اللغة ولكن ينبغى أن يقيد ويزاد عليها.

وفى ص ٢٢٤ فيقول: فيزاد على كتب اللغة أن الحى الطائفة والفئة والجماعة من الناس كانوا بنى أب واحد أو جماعة من قبائل شتى.

وحلل لفظ الدين فى أباطيل وأسمار من ٥٣٢ إلى ٥٥٢

فذكر من معانيه الذل وذكر من ذلك

هو دان الرّباب اذكـــرهوا الـ ى داركـــا بغزوة وصيـــل

والسلطان ومن ذلك فى دين الملك والملة ومن ذلك ما سمعتا بهذا فى الملة الآخرة وظل يذكر معانيه فذكر أن منها السيرة نحو لكم دينكم ولى دين وبمعنى السياسة ثم سمى حساب الناس دينا

إلى أن قال إن معنى الدين الشرائع والعقائد التى استقر عليها الأمر فى قوله تعالى اليوم بئس الذين كفروا من دينكم

وفى قوله تعالى: ومن يبتغ غير الإسلام دينا قلن يقبل منه فهو يعنى الخضوع التام وانتهى من ذلك كله إلى أن ما قرره الله هو الحق «إن الدين عند الله الإسلام» وغير ذلك يمكن أن يطلق عليه ملة أو سيرة أو مذهب أو طريق

حتى لا يقال ان الكفار كانوا على دين حينما قال الرسول لكم دينكم ولى دين.

وصب اللوم على لويس عوض ود. طه حسين حينما ذكرا عن أبى العلاء أنه اجتاز اللاذقية ونزل دير الفاروسى فقال إن اجتاز ونزل مجتمعين بالعطف أو منفردين لايدلان البتة على إقامة طويله بمكان إلا كحسوة الطائر فى مسافة السفر فى إقامة ساعة أو ساعات ثم قال وكلا الرجلين طه ولويس أهدرا معنى اجتاز ونزل ثم عقب على كلمة الدير فقال إن الدير لا يكون إلا فى الصحراء فكيف يكون بمدينة اللاذقية ثم إن ابن بطوطة قال: إنه خارج اللاذقية وهدفهما من ذلك بيان أن أبا العلاء درس اليهودية والنصرانية فهل تؤدى ألفاظهما إلى ذلك؟

وشرح ألفاظ اللغة والثقافة والرجعية والخطيئة والخلاص والفداء والصلب والنبوة بصورة لا مثيل لها فى أى معجم فاللغة وعاء المعارف والثقافة ثمرة المعارف إلى آخره.

وكان دقيقا فى استعمال الألفاظ فقال فأنا لست محققا إنما المحقق من يقول فى قال وفى ع نال وفى م فال وهلم جرا واقتصرت على قرأ لأن عملى لا يزيد على هذا ومن ذلك فى المتنبى حينما عاب طه على المتنبى:

بأبى من وددته فترقنا

حيث قال: فكلمة وددته نابية قلقة

فقد قال والخلاف بيننا وبين الدكتور فى طريقة النقد ههنا جد بعيد فنحن نرى من جهة أن أبا الطيب لو أراد أن يقول أحببته بدلا من وددته لاستقام له الوزن . . . . فلا ضرورة ولا استكراه ثم قال: فالمودة هى ذلك الحب الرقيق الذى فيه حنو وشوق.

وفى تحقيقه لكتاب شرح أشعار الهذليين عمل معجما لما فيه من ألفاظ لغوية فى نهاية الجزء الثالث قال عنه وهو كذلك - ولا شك أنه سيضيف معانى وألفاظا لم ترد فى كتب اللغة أو وردت فى بعضها وبذا يظفر الباحثون بشواهد شعرية لألفاظ كثيرة لم تذكر لهم شواهدها فى كتب اللغة وفيه أيضا قال عن كلمة مرور مثل فتول لم ترد فى اللسان والتاج إلى غير ذلك

المبحث الثالث

حراسته للعربية

أما حراسته للغة العربية فكانت تدور فى محاور عدة أولها إحياء التراث العربى القديم عن طريق قراءته وشرحه وإبرازه إلى الوجود ومن ذلك تهذيب الآثار وطبقات فحول الشعراء وتفسير الطبرى ودلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجانى بالإضافة إلى أعمال أخرى لأبى هلال العسكرى والمقريزى وابن الداير وابن بكار وأبى تمام وغيرهم كما أنه ألف كثيرا من الكتب منها كتابه المتنبى الذى نال به جائزة الملك فيصل العالمية ومنها أباطيل وأسمار ونمط صعب ورسالة فى الطريق إلى ثقافتنا وديوان شعر القوس العذراء ومداخل إعجاز القرآن.

ثانيها: الثناء المستطاب على من يحاربون العامية ويرون الفصحى حياة للأمة ومستقبلا فاضلا لأهلها وفهما أكيدا للكتاب والسنة والتراث العربى كله ومن هذا ثناؤه على الدكتوره نفيسة زكريا سعيد المدرسة بكلية الآداب بجامعة الإسكندرية حبت ألفت كتابا فيما عنوانه:

تاريخ الدعوة إلى اللغة العامية وآثارها فى مصر، فقد قال عن هذا الكتاب:

ينبغى لكل عربى وكل مسلم أن يقرأه من ألفه إلى يائه . . . . والجهد المبذول فى جمع مادة هذا الكتاب جهد يدل على التجرد الصحيح السليم فى طلب المعرفة.

ثالثها: معركته الشرسة مع دعاة العامية من المستشرقين والمصريين وبخاصة لويس عوض وسلامة موسى وآخرون فانتقد تعريف لويس عوض بنفسه حيث يقول لويس عن نفسه: عرف بدعوته للأدب العامى فى صدر حياته وللأدب فى سبيل الحياة فى طوره الحالى ولقد سماه أجاكس عوض صبى المبشرين ثم قال وما دمية يحركها محرك فالدمى كاسمها دمى لا تزيد » وذكر أنه متأثر بوجهة

النظر الأوروبية التى هالها أن رأت عالما ممتدا من قلب روسيا إلى الصين إلى الهند إلى فارس إلى تركيا إلى قلب أوربا يتلو كتابا واحدا يقرؤه من لسانه العربية ومن لسانه غير العربية وتحفظه جمهرة كبيرة عن ظهر قلب وتداخلت لغته فى اللغات فكان من أول هم الاستشراق أن يبحث لأوربا الناهضة عن سلاح غير أسلحة القتال لتخوض المعركة مع هذا الكتاب حتى قال وليم جيفورد بلجراف متى كوارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب يمكننا حينئذ أن نرى العربى يتدرج فى سبيل الحضارة التى لم يبعدهم عنه إلا محمد وكتابه ولذلك كان همهم نشر اللغات الأجنبية عن طريق الإرساليات أو البعثات أو عن طريق التعليم وذلك كما فعل دنلوب فى خطته للتفريغ الثقافى لتنشئة أجيال تنتهك علائقها التى تربطها بثقافتها الإسلامية اجتماعيا وثقافيا و لغويا وعرض تاريخ الدعوة إلى العامية من سبقا الألمانى إلى القاضى ولمور الإنجليزى ومحرر المقتطف حتى أن رفاعة الطهطاوى دعا إلى ضبط اللغة الدارجة بعدة قواعد متأثرا بالاستشراقيين عن حسن نية.

لقد دافع شاكر عن الفصحى فقال: كيف أغفل عن هذا الزحف وأنا لم أزل أشهد منذ عشرات السنين طلائع التخطيط المدبر تنقض على أمتى وبلادى من كل ناحية ومن أجل ذلك لم أحمل القلم منذ حملته إلا وأنا مؤمن أوثق إيمانى بأنى أحمل أمانة إما أن أوديها على وجهها وإما أن أحطم هذا القلم تحت قدمى بلا جزع عليه ولا على نفسى وعاتب صحيفة الأهرام التى نشرت دعوة لويس وأمثاله فقال: أما صحيفة الأهرام التى مكنت لهذا الدعى فإنى لا أزال أحمل فعلها على أحسن محمل.

ولما رد الدكتور مندور على هجومه على لويس عوض مبينا أن كلام الأستاذ شاكر رحمه الله (يثير فتنة قومية دينية، قال شاكر: إن الناس فى حاجة إلى وعظ أبى العلاء حينما قال:

وكيف يؤمل الإنسان رشـــدا ... وما ينفك متبعا هـــواه

يظن بنفسه شرفا وقـــدرا ... كأن الله لم يخلق ســـواه

رابعها حملته الشعواء على مرحليوث ومقلده د/طه حسين فى نظرية الانتحال فيقول فى نمط صعب ٣٧٤ عمد الدكتور طه حسين فى أكتوبر ١٩٢٥ إلى ما كتبه مرجليوت فى يوليو ١٩٢٥ وادعى فيه أن الشعر الجاهلى كله موضوع مصنوع فى الإسلام وأن لغته هى لغة القرآن لا لغة الجاهلية . . . فأخذ الدكتور طه هذه الفكرة كما هى وأخذ معها أيضا أحد أدلتها مما سماه الأدلة الداخلية وهو اختلاف لغة القبائل الجاهلية واختلاف لغة قبائل شمال الجزيرة عن لغة قبائل الجنوب (اليمن) وهى اللغة الحميرية ثم قال شاكر: أحس أن د/ طه وضع الشك فى غير موضعه

وقال فى كتابه قضية الشعر الجاهلى: فالشعر الجاهلى ظل سليما مبرأ محفوفا بالصدق حتى انقضت مائة عام منذ الهجرة وقال فى المتنبى ولكنى بالمقارنة وجدت ترجيع الشعر الجاهلى ولغته كلها مباينة ظاهرة لما أجده فى أكثر الشعر الأموى والعباسى أما كبير المشككين فى الشعر الجاهلى والنافين لصحة ما عندنا منه فقد أساء وأوقد فتنة:

حينما قال: أما نحن فمطمئنون إلى مذهبنا بأن الشعر الجاهلى أو كثرة هذا الشعر الجاهلى لا تمثل شيئا ولا تدل على شئ إلا ما قد منا من العبث والانتحال.

خامسها الدعوة إلى وضع ألفاظ اللغة فى مواضعها حيث يقول فى رسالته إلى ثقافتنا: ولا يغررك زخرف الألفاظ الوسيمة والمتلألئة مثل الجديد والقديم والأصالة والمعاصرة والتجديد والتقدم والثقافة العالمية والحضارة العالمية . . . فإنما هى ألفاظ لها رنين وفتنة ولكنها مليئة بكل وهم وإيهام وزهو فارغ مميت فاتك توغل بنا فى طريق المهالك.

ونعى على عدم الإبداع الأدبى والاعتماد على السطو فقال عن المسرح:

فأيسر سبيل كان إلى امتداده بمادته هو السطو على مؤلفات المسرح الأوربى مسلوخة يعاد تكوينها بألفاظ عربية أو عامية على الأصح دون إشارة إلى هذا وكانوا يسمون هذا حياء ومكرا التمصير والقصة أيضا كانت ضربا من

السطو.

ونفى أن يكون التجديد فى دراسة آداب أمة ما وفى دراسة تاريخها أن يكون معنى الجديد أن يعمد المجدد إلى اقتباس آراء وأفكار قد تولى صياغتها من هو لصيق دخيل عليها وعلى لسانها لم ينشأ فيه.

سادسها: الدفاع عن أعلام الأدب العربى كما فعل فى كتابه المتنبى فقد دافع عنه بالبراهين الساطعة وعن نسبه العلوى وبين أن طه حسين سطا على كتابه سطوا فظيعا ولم يكن له سوى المط والتشدق وذكر ما تأثر به من المستشرق بلا شير.

سابعها: الدعوة إلى أن ننعم النظر فى شأن القرآن الكريم ثم فى شأن الحديث لأنهما كانا أول فاتحين وهذا خليق بأن يدفع العرب إلى حمل أمانة القرآن بحقها مرة أخرى وحمل أمانة لغة القرآن بحقها مرة أخرى برد جميع البلاد الإسلامية غير العربية إلى القرآن كلام الله ويرد هذه الألسنة إلى لسان واحد هو اللسان العربى (أباطيل وأسمار)

ثامنها: أبدى رأيه الموجز الدقيق فى أسباب ضعف النشء فى العربية فرده إلى المنهج وهو التجاهل للآثار الأدبية وقلة الاحتفال بتزويد الناشئ بمادتها التى يحفظها لتكون أيداً على مد المذاكرة وفى طلب اللسان وفى الرسالة السنة الثامنة ١٩٤٠ ص ٧٠٢) بين خطر العامية منذ عهد محمد على وذكر أثر البعثات والمبشرين والمستشرقين والصحافة والمدارس الأجنبية وكانت نظريته أن الدعوة إلى العامية تأتى قبل نهضة أو معها أو فى أعقابها.

تاسعها: نقض دعوة عبد العزيز فهمى باشا إلى الكتابة بالحروف اللاتينية تحت عنوان الإسلام والحروف العربية بأدلة ثلاثة:

الأول: أن العربية لغة اشتقاق ومهما تعددت المشتقات فهناك تماثل بينها أما فى اللاتينية فستتعدد الكلمات بتعدد الشتقات

الثاني: أن الخطأ فى قراءة الحروف العربية لا يعود إلى صعوبة الحرف المكتوب وإنما يعود إلى القارئ نفسه وأن الخطأ فى الإعراب لن يكون من قبل كون سهلة أو صعبة بل هو راجع إلى المتكلم أو القارئ من قبل الضعف والقوة والعلم والجهل ليس غير.

الثالث : أن العربية لغة بنيت على الاشتقاق والاختصار واتخاذ الحرف اللاتينى سوف يباعد بين الكلمات وأصولها

(الرسالة السنة الرابعة عشرة ١٩٤٦ ص ٣٠١).

عاشرها: أكد أبو فهر أن حضارتنا قائمة على تذوق الكلمة

فقال: ونحن أبناء هذا اللسان العربى المبين قد قام أصل حضارتنا على التذوق فى الجاهلية وفى الإسلام الباقى بحمد الله وحده وبلغ التذوق بنا مبلغا سنيا فريداً» (مقتبس من قضية الشعر الجاهلى)

ثم فى أباطيل وأسمار ١٣٤ فحسن التذوق يعنى سلامة العقل والنفس والخلو من الآفات فهو لب الحضارة وقوامها لأنه أيضا قِوام الإنسان المدرك الذى تقوم به الحضارة.

الأستاذ محمود محمد شاكر «مؤرخاً»

بقلم الدكتور «محمد جبر أبو سعده»

الأستاذ فى كلية اللغة العربية بالقاهرة

فى مناسبة بلوغ الأستاذ «محمود محمد شاكر» - رحمه الله رحمة واسعة - عامه السبعين، أهدى إليه نخبة من أصدقائه، ومحبيه، وتلاميذه، من العلماء والباحثين، مجموعةً طيبة من الأعمال الأدبية فى مجلد ضخم؛ وقدموه إليه بعنوان «دراسات عربية وإسلامية مهداة إلى أديب العربية الكبير (أبى مهر محمود محمد شاكر) بمناسبة بلوغه السبعين».

وهكذا رأى أولئك الأصدقاءُ والمحبون، أن شهرة الأستاذ محمود شاكر، هى فى ميدان العربية وآدابها، أو فلنقل فى ميادين الأدب العربى، فإذا كانوا أرادوا بهذا اللقب الضخم - الذى هو أهل له بطبيعة الحال - معناه الرحب الذى يشمل فى أعطافه كلَّ فنون البحث والدرس والتأليف فى العلوم العربية والإسلامية على تنوعها وتعددها، فنحن نلتقى وإياهم فى إطلاق هذا اللقب على أستاذنا الجليل، ونؤكد فى ثقة وطمأنينة دقة هذا الوصف ومطابقته للموصوف.

أما إن كان مرادُهم بأديب العربية المعنى الآخر، وهو المعنى المحدودُ بإطار العمل الأدبى من شعر ونثر ونقدٍ لهما - ولا أظنهم أرادوا ذلك - فلا شك حينئذ أننا وإياهم غير متفقين.

وقد يكون لهؤلاء الأصدقاء والمحبين والمخلصين - الذين كرّموا الأستاذ الكريم - مندوحة فى إرادتهم المعنى الأخير، إذا نظروا فقط إلى تلك الأعمال التى أبدعها الأستاذ محمود شاكر، وسارت بذكره وبذكرها الركبان، مثل: المتنبى، وطبقات فحول الشعراء، والقوس العذراء، وأباطيل وأسمار، ونمط صعب ونمط مخيف ، وغيرها، وغيرها، من التحقيقات والبحوث والدراسات، مشهورٍ أمرها ومعروف، لكن الحق الذى ينبغى تقريره والتزامه، هو أن الأستاذ محمود محمد شاكر قد كان أديبَ العربية الكبير، الذى استوعب اهتمامه، واطلاعه، وفكره، ونتاجه جوانبَ الحضارة العربية الإسلامية وآفاقها الرحيبة، وعلومها

المتنوعة، وهذا الأمر حق بيِّنٌ يعرفه كل من اقترب من الأستاذ، واستمع إليه، وأخذ عنه، وقرأ عليه، أو قرأ له.

كما أنه أمر لا بِدْعَ فيه بوجه من الوجوه، فإن محمود شاكر هو سليل علمائنا الأجلاء، ووريثُ شيوخنا الفضلاء، من أعلام الإسلام والعربية، أمثال: أبى جعفر الطبرى، والخطيب البغدادى، وعبد القاهر الجرجانى، والشهاب النويرى، والجلال السيوطى، والبغدادى صاحب الخزانة؛ فهو خير خلف لهؤلاء الأسلاف الكبار – أجزل الله مثوبتهم جميعا.

دخل ميدان المعرفة من بابها الواسع، وانطلق خلاله مندفعاً، لا يتردد ولا يتوقف، يغترف من مناهلها جميعا، وينهل من مواردها الفياضة، تماماً كفعل أولئك الشيوخ، قراءةً، وتحصيلاً، وبحثاً، ودرساً، وتأليفاً، ونقداً، طوال عشرات السنين، وهو إبّان تلك العقود المتوالية من هذا القرن العشرين يرقب الحياة الفكرية فى مصر، ويرصدها رصداً لا يغادر صغيرة ولا كبيرة من أمورها، ويتابع الحالة الثقافية لأمته العربية والإسلامية، مراقبة المتنبه اليقظان، ومتابعة الخبير المستأمَن، لا يكاد يسهو أو يَغفل عن أمر جَلّ أو دَقّ من شئونها؛

فمن هنا كانت أعماله جميعا تعبيراً عن هذا الفكر الشامل، والرؤية الجامعة، والبصيرة الواعية عربياً وإسلامياً فى وقت معاً؛ وما ذلك إلا لأن الركيزة الثابتة لفكر الشيخ ورؤيته هي: الإسلام والعروبة اللذان لا ينفك أحدهما من الآخر ولا ينفصل عنه، ولأن أصول المعرفة عند هذه الأمة العربية الإسلامية هى: القرآن الكريم والسنة النبوية، ثم ما اهتدى إليه علماء المسلمين واستخرجوه من هذين الأصلين الأوّلين.

ولستُ هنا بصدد عرض هذه الأعمال، وتفصيلِ القول فيها، وإنما الذى أردتُ التنويه بشأنه، وبيان أهميته منها فى هذا المقام هو: الأعمال التاريخية، أو بعبارة أخرى مقاربَة: أن أتحدثَ عن الأستاذ محمود شاكر مؤرخاً، صاحب منهج مستقيم، واضح المعالم، محدَّد القسمات، يهتدى به كلٌّ من قَصَد الحقَ وسعى إليه.

ومما لا مشاحة فيه، أنه إذا كان محمود شاكر أديبَ العربية الكبير، فإنه كذلك أحد المؤرخين المعاصرين الذين ينبغى التنبُّه الشديد إلى جهودهم القيمة فى هذا المجال؛

وإنما أقول ذلك بعد الدراسة والتأمل والتدقيق العميق، فيما خطه قلمه الفذ من دراسات وتحليلات لم يسبق إليها، تناولت قضايا، وحوادث، ومواقف على امتداد العصر الرسلامى منذ فجره، وحتى يوم الناس هذا، بل وحتى توقف قلمه عن الكتابة، وهو فى كل ما عالجه منها، يقدم رؤية المؤرخ المسلم الملتزم بقواعد المنهج الصحيح الذى لا تشوبه تمويهات المدلسين، ولا تشوهه تجاوزات الجانحين أصحاب الهوى المستحكم.

إن الأستاذ محمود شاكر المؤرخ، يعى تماماً حقيقة وأبعاد الحملة الضارية، والهجمة الشرسة التى تعرضت وتتعرض لها الأمة والدعوة الإسلامية من أهل الكتاب، منذ ظهورها،ويعلم دقائق وتفاصيل ذلك كله، ومن ثم فهو يتصدى بالقوة والحسم، والمنطق الواضح، والفكر المرتب، والعرض التاريخى الدقيق الموثق بالقرآن الكريم، والحديث النبوى الصحيح، والسير الموثوق بها، والنصوص التاريخية المعتد بها سنداً ومتناً؛ يتصدى بكل هذه الأسلحة الماضية، للرد على من يحاول استباحة حمى الإسلام، أو الخوض فى تاريخه بغير الحق، أو الطعن فى سيرة رسول الله ﷺ، أو سير صحابته وأعلامه، أو تحميل النصوص التاريخية مالا تحتمل، بغية تشويه هذا التاريخ، والإساءة إلى رجاله فرادى أو مجتمعين.

ولست أجد الفرصة مهيأة لى الآن، للحديث عن الدراسات والبحوث والتحقيقات والنقود، التى قدمها الأستاذ محمود شاكر للمكتبة التاريخية منذ بدأ مسيرته المباركة مع العلم والقلم فى العقد الثالث من هذا القرن، لذلك أود أن تأذنوا لى بالحديث عن عمل شريف من تلك الأعمال العديدة، وأعنى به: ردّه ودفعه الحاسم لأقاويل وأباطيل الدكتور «لويس عوض» التى ضمنها مقالاته المنشورة فى صحيفة الأهرام فى عام ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م عن أبى العلاء المعرى. وهو ردّ علمى، موضوعى، منهجى، مستوف سائر تلك المصطلحات التى تجرى على ألسنة كثير من المشتغلين بالبحث الأدبى، ولا تجد صداها التطبيقى فى كثير من أعمالهم، كما أن جمهرة كبيرة منهم، يرون أنها من مبتكرات الحضارة الغربية الحديثة؛ مع أن الحقيقة أن نشأتها، ثم استواءها على عودها إسلامية، عربية، عريقة!

وقد بدأ شيخنا الجليل دفعه لهذه المفتريات، بأن عرض ما قاله الدكتور لويس عوض عن حياة أبى العلاء حتى سن الخامسة والثلاثين، ونصه:

«... فحلب، وهى على بعد أميال من قليلة من المعرة، يتبادلها أولاً الحمدانيون تظاهرهم عسكر الروم والفاطميون. ثم يتبادلها ثانياً المرداسيون تظاهرهم عسكر الروم والفاطميون، ولم تكن أنطاكية أحسن حالاً، فقد ظلت مائةً وعشرين سنة كاملة فى يد الروم، من سنة ٣٥٣ إلى سنة ٤٧٧هـ، ولد وهى لهم، ومات وهى لهم، وتعلم بها وهو صبى وهى لهم، فقد كان يختلف إلى مكتبتها مع أسامة بن منقذ، فيما روت كتب القدماء، وكانت فيها يومئذ حضارة زاهرة حسب ماروى ياقوت الحموى.

«وقد كان حكمُ اللاذقية حكمَ أنطاكية، كانت فى يد الروم زمنَ المعرى، وقد تعلم المعرى فى اللاذقية، كما تعلم فى أنطاكية، ففيما روى القفطى والذهبى، أنه نزل بدير فيها، «ولَقى بهذا الدير راهباً قد درس الفلسفة وعلوم الأوائل» بلغة طه حسين، أو باختصار: أخذ عنه اليونانيات، فما علوم الأوائل هذه التى كانت تقرأ فى الأديرة تحت حكم الروم، إلا آداب اليونان وفلسفتهم فى لغتها الأصلية، والحق أنه لا يعرف شيء عن تعليمه الرسمى حتى سن العشرين، وهى سنّ التكوين، إلا أنه تعلم فى حلب، ثم فى أنطاكية، ثم فى اللاذقية، ثم فى طَرابلس، ومثل هذا الغموض الذى أحاط بتكوينه العقلى حتى سِن العشرين، يحيط أيضاً بحياته كلها فيما بين العشرين والخامسة والثلاثين».

وقد بنى الأستاذ محمود شاكر ردَّه ونفيَه هذه الأقاويل تأسيساً على فساد منهج الدكتور لويس عوض فى دراسته للمعرى، وبيان هذا الفساد ظاهر جلىّ فيما يلى:

أولاً: أن الدكتور لويس قد اعتمد فيما كتب عن المعرى على كتاب واحد فقط هو (ذكرى أبى العلاء) للدكتور طه حسين، الذى قال فيه عن رحلة المعرى إلى أنطاكية: «نعم إن التاريخ لا يوقّت لنا هذه الرحلة، ولكن روايةً تؤثر عن أسامة بن منقذ، خبّرتنا أنه لَقى بأنطاكية صبياً مجدوراً ذاهب البصر، يتردد على مكتبتها، فامتحنه، فبهره حفظه واستظهاره، ثم سأل عنه فقيل: هو أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان المعرى.

ولا شك فى أن هذه الرواية، إما أن تكون منتحلة، وإما أن يكون اسم أسامة قد وقع فيها خطأ موقع اسم أحد آبائه من أبناء منقذ، فإن أسامة ولِد سنة ٤٨٨هـ، أى بعد موت أبى العلاء بنحو أربعين سنة».

يقول الأستاذ محمود شاكر: «وظاهر أن الدكتور لويس عوض لم يطلع على شيء قط مما كتب عن المعرى، إلا على كتاب الدكتور طه حسين وحده، لا فى العربية ولا فى غيرها من الألسنة التى يقول عن نفسه إنه درسها ...».

ثانياً: ثم يوضح الأستاذ أن الدكتور لويس عوض - الذى يدعي المنهجية والبحث الموضوعى - مجرد من الأمانة العلمية، وهذه بلية كبرى، لأنه لم يقرأ من قول الدكتور طه حسين إلا أسطراً، ثم قفز، فلم ير نقده لهذا الخبر، مع أن هذا النقد يسقط الخبر.

ثالثاً: ثم أضاف إلى ذلك بلية أخرى، حين حرّف الكلم عن مواضعه؛ وغيّر وبدّل قول الدكتور طه حسين «إن أسامة بن منقذ لقى صبيا مجدورا يتردد على مكتبه أنطاكية» فيأتى هو فيزعم أنه كان يختلف إلى مكتبتها مع أسامة بن منقذ، حتى يوهمك أنهما قرينان أو صديقان.

رابعاً: ثم يتمم البلابا بادعاء وتظاهر وتنفُّخ غثّ فيقول: «فيما روت كتب القدماء» كأنه عرف ما هذه الكتب، وكأنه زاد على الدكتور طه، واطلع على ما لم يطلع عليه!؟

وفى استقصاء دقيق، وتتبع عجيب لأصل هذا الخبر الذى أورده الدكتور طه حسين، واختلسه منه الدكتور لويس عوض، بيّن الأستاذ محمود شاكر أن ذكْر أسامة بن منقذ لم يرد إلا فى كتاب واحد هو كتاب «الصبح المنبى» للشيخ يوسف البديعى المتوفى عام ١٠٧٣ هـ، وأن البديعى يذكر هذه القصة فى كتاب آخر له بعنوان «أوج التحرى» فيقول «نقل عن ابن منقذ» بإسقاط أسامة ثم ينبه الأستاذ إلى أن يوسف البديعى متأخر جداً؛ فبينه وبين المعرى أكثر من ستة قرون! وينبه كذلك إلى أمر مهم آخر، وهو: أن البديعى - وإن لم يصرح - قد نقل هذا الخبر عن ابن العديم المتوفى عام ٦٦٠هـ - وهو من أعيان حلب - فى كتابه «الإنصاف والتحرى، فى دفع الظلم والتجرى، عن أبى العلاء المعرى» - وهذه الكتب الثلاثة مطبوعة أى أنها فى متناول الباحث والقارىء يومئذ - وقد أورد ابن العديم الخبر مسنداً إلى صاحبه الأول: «... حدثنى والدى رضى الله عنه وأرضاه، يرفعه إلى ابن منقذ، قال: كان بأنطاكية ....» وساق الخبر بطوله، فلما فرغ منه قال: «وهذه الحكاية فيها من الوهم مالا يخفى، وذلك أنه قال: كان بأنطاكية خزانة كتب إلى آخر ما ذكره، وهذا شيء لا يصح، فإن أنطاكية أخذها الروم من أيدى المسلمين فى ذى الحجة سنة ثمان وخمسين

وثلاثمائة، وَوُلدَ أبو العلاء بعد ذلك بأربع سنين وثلاثة أشهر، في شهر ربيع الأول من سنةَ ثلاثٍ وستين وثلاثمائة، وبقيت أنطاكية بأيدى الروم إلى أن فتحها سليمان بن قتلمش فى سنة سبع وسبعين وأربعمائة، وكان أبو العلاء قد مات قبل ذلك فى سنَة تسع وأربعين وأربعمائة، وأخلاها الروم من المسلمين حين استولوا عليها، فلا يتصور أن يكون بها خزائن كتب، وخازِن، وتقصد للاشتغال بالعلم.

ثم يضيف ابن العديم: ويُحتمل عندى أن يكون هذا بكَفْرِ طاب، فقد كانت كفر طاب مشحونة بأهل العلم، وكان بها من يقرأُ الأدبَ ويشتغل به قبل أن يهجمها الفرنج، وهجمها الفرنج فى سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة، وكانت لأبى المتّوج مَقلّد بن نصر بن منقذ فى أيام أبى العلاء، فلعله تصحف كفر طاب بأنطاكية، وتصحيفها غير مستبعد، فإن كان كذلك، فابن منقذ الحاكى لهذه الحكاية هو أبو المتوّج مقلّد بن نصر بن منقذ، أو أبوه نصر، وكفرطاب قرية من معرة النعمان».

ثم ذكر احتمالاً آخر: أن يكون ذلك بحلب، واستدل عليه.

يقول الأستاذ محمود شاكر مُنبِّهاً: «وقد أطلتُ بنقل هذا، لنرى أىَّ منهج كان يسير عليه علماؤنا فى نقد الأخبار منذ أكثر من سبعة قرون ونصف، على عهد ابن العديم».

ولما كان كلامُ الدكتور لويس عوض مبنياً – بعد التحريف والتغيير – على ما قاله الدكتور طه حسين فى كتابه (ذكرى أبى العلاء) الذى ألَّفه عام ١٩١٣م، أى قبل خمسين سنة من نشر أقاويل الدكتور لويس عوض، فإن الأستاذ محمود شاكر ينبِّه إلى أنه قد نشر فى هذه السنين الكثير من مصادر التاريخ ومعاجم الرجال، التى ترجمت لأبىَ العلاء، وتضمنت نصوصاً لم يطّلع عليها الدكتور طه حسين، مما يدعوه إلى إعادة النظر فى هذا الكتاب، بل إن الأستاذ محمود يصرح بدعوة الدكتور طه حسين إلى كتابته مرة أخرى على الوجه الذى يرضيه اليوم، بعد أن استحكمت قوته، واتسع علمه.

ومضى الأستاذ محمود شاكر فى استقصائه وتتبعه، فذكر نحو ثلاثين كتاباً، ترجم أصحابها لأبى العلاء المعرى، ورتبهم زمنياً، فبدأ بالثعالبى المتوفى عام٤٢٩هـ، وانتهى بالعباسى الموسوى – القرن الثانى عشر الهجرى – فأما

الذين ذكروا هذه القصة منهم، فهم تسعة فقط، أولهم القفطى الذى وُلِدَ بعد وفاة أبى العلاء بمائة وعشرين عاماً، وأما الثمانية الآخرون فقد نقلوا عنه بتصرف قليل أو كثير، على أن المشكلة الكبرى في رواية القفطى هذه أنها بلا إسناد، فلا أصل لها، وتنطوى على علل قادحة أخرى، كفيلة كلها بعدم اعتمادها، وإسقاط اعتبارها!

إن الباحث الذى يتصدى لدراسة أعلام الإسلام، ينبغى أن يكون على دراية واسعة بفهارس الرجال ومعاجم الطبقات، واعياً دقيق الوعى بطرائق أصحابها ومناهجهم، مدركاً دقة مدلولات مصطلحاتهم، وحين يقدم على دراسة أحد هؤلاء الأعلام، فلابد أن يكون على ذكر تام بكل ما قيل فيه وكتب عنه قديماً وحديثاً، ثم- وهذا هو الأهم- ألا يكون من أصحاب الهوى المتحكم، والتوجه المستبد، الذى يصرف الباحث عن الحق المنشود!

إن الدراسة المستفيضة، والنقد التحليلى اللذين قام بهما الأستاذ محمود شاكر لمقالات الدكتور لويس عوض عن أبى علاء المعرى، قد كشفا عن حقيقة مؤسفة، هى: أن الدكتور لويس عوض لا يملك من هذه الشرائط المذكورة شيئا؛ وذلك أنه قد افتقد الدراية بفهارس الرجال ومعاجمها، وافتقد - بالضرورة - الوعى بطرائق أصحابها ومناهجهم، كما أنه لا يعرف مدلولات مصطلحاتهم، وكذلك لم يكن على ذكر بشىء مما كتب عن أبى العلاء قديماً أو حديثاً، إلا ما كتبه الدكتور طه حسين، وهو غير دقيق ولا مقبول، أما الشرط الأخير، فقد تجرد منه تماماً، لأنه - كما كشف عن ذلك الأستاذ - قد اتبع هواه، وخضع لرأيه الجامح، وفارق الصواب عامداً، قاصداً، فى حديثه عن أبى العلاء، وتكوين شخصيته العلمية والفكرية، والمصادرالتى استمد منها أبو العلاء ذلك التكوين.

لقد انتهى الأستاذ محمود شاكر - فى هذه الدراسة وذلك النقد - إلى حقيقة ظاهرة، هى :أن الدكتور لويس عوض - شأنه شأن جميع المبشرين والمستشرقين الذين درسوا الشخصيات الإسلامية-قدّم للقارىء العربى أبا العلاء المعرى، بعد أن جرده من مقومات شخصيته العربية الإسلامية، وأبعده عن بيئته الأصلية الحقيقية، التى فيها ولد ونشأ، وبها تربى وتعلم، وعلى تقاليدها وقيمها شب وأدرك مدارك الرجال! قدّمه هكذا، بعد أن عوّل - فقط - على ذلك الخبر المتهافت، الذى يحاصره الفساد من جميع أقطاره، وتحيط به شبهات الوضع من شتى جوانبه(خبر زيارة أبى العلاء لدير الفاروس فى أنطاكية)،

وذلك على الرغم من أن زيارة الأديرة لم تكن يومئذ لطلب العلم أو تحصيل المعرفة، وإنما كانت لإشباع رغبات أخرى لا علاقة لها بالعقل والفكر، وهى مذكورة ومشهورة - لو كان الدكتور لويس عوض يقرأ أو يبحث عن الحقيقة - وجعل من ذلك الراهب النصرانى، الذى لقيه بالدير أستاذه الذى منحه علمه وفكره، كما جعل من آداب اليونان وفلسفتهم ولغتهم الأصلية مصادر أدبه وعلمه وفكره وفلسفته!

ثم لقد بقى من حديث الأستاذ محمود شاكر، البيان التالى:

«أما الآن، فأحب أن أختم القول فى حديث راهب دير الفاروس، ببيان لابد منه لكل عاقل يدارس الآداب فى اللغة العربية وغير العربية، فمثل هذا الخبر إذا جاء، وعرف بطلانه من وجوهه الصحيحة التى تقوم بها مناهج الدراسة، وجب على الدارس أن يلتمس العلة التى من أجلها وضع الخبر واضعه، وقد كنت استنبطت من بعض ألفاظ الخبر أنه خبر زيفه علج من علوج الشام، أو زاقول من زواقيل الجزيرة (والعلوج: بقايا عجم الشام، والزواقيل بقايا عجم الجزيرة)، ثم ألقى به إلى القفطى(٥٦٨ - ٦٤٦هـ) بعد وفاة أبى العلاء بقرنين تقريباً، ليطرفه به(على سبيل الفكاهة)، لما رأى من حيف القفطى على شيخ المعرة، وحرصه على مذمته، فلفق له هذا الخبر مريدا لتحقير أبى العلاء، ووصفه بالضلالة وسوء العقل، إذ تمكن من إضلاله وهو طالب علم صغير، راهب يشدو شيئا من علوم الأوائل، وكأنه أراد أن ينقض به ما كان يقال ويذكر من ذكاء هذا الفتى الأعمى فى صغره، مما رواه القفطى نفسه فى ترجمته لشيخ المعرة.

وليس هذا بعجيب، فالمتنبى، وهو أيضاً ممن كان يوصف بالذكاء صغيراً، وقدح الناس فى عقيدته كما قدحوا فى عقيدة شيخ المعرة، ابتلى مثل ابتلائه، فإن أبا القاسم عبد الله بن عبد الرحمن الأصفهانى، ألف لبهاء الدولة البويهى كتاباً فى المتنبى، ليرضيه به ويشفى غليله فى أبى الطيب، فكتب فيه ما يلى، ويعنى المتنبى: «وهو فى الجملة خبيث الاعتقاد وكان فى صغره وقع إلى واحد يكنى أبا الفضل بالكوفة من المتفلسفة، فهوسه وأضله كما ضل».

فهذا شبيه بما قيل فى أبى العلاء، حذوك النعل بالنعل! وليس لهذا حقيقة، كما بينت ذلك فى كتابى عن المتنبى، وإنما هو إرادة الاستخفاف لا غير.

أما مسألة «الراهب» فلها عندنا شبيه قديم، ففى كتاب مذكور عندنا، رآه البيرونى ونقل عنه، وهى رسالة «عبد الله بن إسماعيل الهاشمى، إلى عبد المسيح بن إسحاق الكندى، وردُّه عليها» وهى مطبوعة بمصر ولندن مرات، ذكر عبد المسيح أوَّليَّةَ أمر رسول الله ﷺ، فيما زعم:«أنه كان رجلٍ من رهبان النصارى، يعرف بسرجيوس، أحدث حدثاً أنكره عليه أصحابه، فحرموه وأخرجوه، وقطعوه عن الدخول إلى الكنيسة، وامتنعوا من كلامه ومخاطبته على ما جرت به العادة منهم فى مثل هذا الضرب، فندم على ما كان منه، فأراد أن يفعل فعلا يكون له به تمحيص من ذنبه، وحجة عند أصحابه النصارى، فصار إلى بلد تهامة، فجالها حتى أفضى إلى تربة مكة، فنظر البلد غالباً فيه صنفان من الديانة، فكان الأكثر دين اليهود، والآخر عبادة الأصنام، فلم يزل يتلطف ويحتال بصاحبك (أى رسول الله بأبى هو وأمى) حتى استماله، وتسمى عنده نسطوريوس، وذلك أنه أراد بتغيير اسمه إثبات رأى نسطوريوس الذى كان يعتقده ويتدين به، فلم يزل يخلو به ويكثر مجالسته ومحادثته، ويلقى إليه الشىء بعد الشىء إلى أن أزاله عن عبادة الأصنام، ثم صيَّره داعياً وتلميذاً له، يدعو إلى دين نسطوريوس ...» إلى آخر هذه الشنشنة التى يطول نقلها، والمخرقة السخيفة التى لا تنقضى عجائبها (والشنشنة: الطبيعة والعادة).

ومن قبل هذا ما قالت كفار قريش بمكة، وكان فيها نصرانى أعجمى اللسان، ربما دخل عليه رسول الله ﷺ وكلمه وجالسه، فكان المشركون يقولون: إنما يعلمه هذا النصرانى!

فأنزل الله فى كتابه في سورة النحل: ﴿ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يُعلِّمه بَشَر لسَان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين﴾.

فهذه الشنشنة التى نعرفها من كفار قريش، ومن عبد المسيح الكندى، ومن الأصفهانى، باتخاذ راهب من الرهبان أو متفلسف ضالٍّ محوراً تحاك حوله قصة؛ هى الشنشنة التى ورثها علج الشام أو زاقول الجزيرة، حين أراد النيل من شيخ المعرة وثلبه، فابتلى راهب دير الفاروس بما لا أظنه كان يحسن منه شيئاً، فضلا عن أن يشدو منه طرفاً» !!

ثم يبقى أخيراً أن أقول ما لابد من قوله، وهو: أن من أراد المزيد فى معرفة هذه القضية، والإحاطة بتفاصيلها، فليقرأ كتاب «أباطيل وأسمار» لأستاذنا الجليل محمود محمد شاكر، فهو مصدر كل ما ذكرت فى هذه الكلمة،

ولعلى لا أجاوز الحق إذا قلتُ: إن قراءة هذا الكتاب، وكتابه الآخر «رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا» مما ينبغى لكل مثقف عربى ومسلم، لأن فيهما ما لا يصح الجهل به، ولا تجاهله!

والله من وراء القصد، وهو الهادى إلى سواء السبيل.

د. محمد جبر أبو سعده

الأستاذ فى كلية اللغة العربية بالقاهرة

ذو القعدة ١٤١٨هـ/ مارس ١٩٩٨م

مع الأستاذ محمود شاكر ذكريات وتأملات

بقلم أ. د/ جــودة مصطــفى

أستاذ بكلية اللغة العربية بالقاهرة

علاقتي بالأستاذ محمود شاكر رحمه الله، تمتد فى الزمن إلى أواخر الأربعينات؛ فهى تبدأ قبل أن ألقاه؛ وذلك عن طريق مجلة الرسالة القديمة. رسالة الأستاذ الزيات؛ فقد عرفت طريقى إلى مجلة الرسالة، أو عرفت طريقها إلىّ فى وقت مبكر من حياتى؛ إذ كنت فى السنة الدراسية الثانية من المرحلة الابتدائية، وعلى صفحاتها عرفت فيمن عرفت الأستاذ محمودا شاكرا، والدكتور رجب البيومى، الذى كان طالبا أيامها فى كلية اللغة العربية، وكان ينشر علي صفحاتها أبحاثا تدور حول بعض الشعراء معتمدا على ما ورد فى كتاب الأغانى، كما كان ينشر شعرا، أذكر منه قصيدة عن الكوليرا، وقصيدة؛ «حوار مع أبى العلاء»، وقد شدنى الأستاذ شاكر إليه بأسلوبه المتدفق المؤثر وأفكاره الملتهبة بحرارة الإحساس، وكان آخر ما قرأت له؛ فى هذه المجلة أيامها، دفاعه عن معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه وعن الدولة الأموية، واقفا ضد التيار شبه العام، الذى يدين معاوية والدولة الأموية، ويتهمهم بأنهم حولوا الخلافة الرشيدة إلى ملك عضوض، وأقام دفاعه على أساس أن معاوية صحابى جليل، وأحد كتاب الوحى. هذا ما بقى فى ذهنى بعد هذا الزمن الطويل، وقد تصدى له محمد رجب البيومى بالرد، وكان أيامها حديث التخرج، ولم يبق فى جعبتى من رده إلا اتهامه الأستاذ محمودا بأن أدلته أدلة خطابية تستعين بالعاطفة الزائدة والحماسة المتأججة. وهنا توقف الأستاذ محمود شاكر، ولم يكمل الموضوع، وترك الكتابة فى مجلة الرسالة، حتى أغلقت أبوابها، وظل فى ذهنى وفى نفسى سؤال: لماذا لم يكمل الأستاذ موضوعه؟ ولماذا ترك الساحة مع شوقى الزائد إلى الرد؟

وأقفز فوق الزمن مؤقتا، حيث تتوطد علاقتى بالأستاذ، وأطلب الإجابة عن السؤال الذى لم يفارقنى: لماذا ترك الساحة ولم يرد؟ وعرفت منه أنه لم يرد على رجب البيومى لأنه كان لسان غيره، وأداة للإخوان المسلمين ولا أدرى هل

يقصد أنهم دفعوه إلى الكتابة والرد، أم كانوا يكتبون الرد وينشره باسمه؟

ولكن كيف اتصلت شخصيا بالأستاذ شاكر؟

مّرت الأيام وأتيت إلى القاهرة طالبا فى كلية اللغة العربية، ولم يخطر ببالى أن ألقاه، فقد جرفت ثورة يوليو النظام الاقتصادى والاجتماعى والسياسى والثقافى وغيرت معالم الخريطة الاجتماعية، وخلطت الأوراق، وبرزت على السطح شخصيات، وتوارت شخصيات، وتصدرت أفكار وقيم وتوارت أخرى ثم يشاء الله أن يشيد بالأستاذ شاكر أمامى صديق قاهرى، كان يدرس الفلسفة فى كلية الآداب، ويعرض علىّ الذهاب لزيارته، وكان ذلك سنة ١٩٥٦، وكان هذا الصديق قد تعرف عليه فى بيته مع بعض الشباب المثقف المتطلع إلى المعرفة ويبدو أنه - من خلال المناقشات - كانت هناك أفكار واتجاهات اختلفا حولها، وخاصة بالنسبة إلى ثورة يوليو، فأراد أن يذهب إلى الأستاذ شاكر ليرى رأيه فى تأميم قناة السويس، والشباب أيامها كانوا يعتبرون هذا العمل عملا سياسيا ووطنيا خارقا للعادة، فهو يملأ نفوسهم بالعزة والنصر.

وكان أن ذهبت بصحبته، ومعنا صديق آخر إلى بيت الأستاذ، وقد ذهلت حين فتح الباب، ووقف به مرحبا، فالمكتبة تكاد تغطى كل جدران البيت، من الأرض الى السقف، ابتداء من الباب حتى حجرات النوم، وبعد ذلك عرفت أن هناك «كراتين» مملوءة تحتل الشرفات. وبعد أن جلستا دار بيننا الكلام: سؤال عن رأيه فى تأميم القناة، ثم أخذ الكلام يتشعب، ولكنه لا يخرج عن هموم الوطن، واثناء ذلك خرجت من فمى كلمة لا أستطيع أن أحدد لفظها، ولكن أستطيع أن أقول إن لها إيحاء أو ظلالا تشكك أو تسىء الظن، ولعلها: عملاء الاستعمار، أو العملاء؛ فأخذها الأستاذ شاكر على محمل الإساءة، وكأنه هو المقصود بهذا الاتهام؛ فإذا به بعد أن نطقت هذه الكلمة ينفعل واقفا، وظل يتحدث فى انفعال شديد، تتلاحق كلماته وأنا صامت، وما إن يجلس حتى يقف وجسمه كله يهتز ويتخلج، وبين الحين والحين يردد الكلمة إياها قائلا: «مش تقولى عملاء»، وأخيرا هدأ إذ لم يجد منى سوى الصمت، ثم دار الحديث يمينا ويسارا، ولكنه يصب فى السياسة وتأميم القناة، أما أنا فقد ظللت صامتا حتى خرجنا، وآثر صديقاى أن نعود سيرا على الأقدام من ألماظة حتى الظاهر يغلفنا الصمت، حتى لا نفرغ الشحنة التى شحنا بها من الأستاذ، هكذا كان رأيهما. وجرت مياه كثيرة فى نهر الزمن، وتعرفت على طلاب سوريين

وعراقيين يعدون رسائل لدرجات الماجستير والدكتوراة، منهم عبد الكريم الأشتر وشاكر الفحام، وحمد الكبيسى، وقد ساعدت أحدهم، وهو عبد الكريم الأشتر فى جمع المادة الأدبية، فكنت أتتبع شعر دعبل الخزاعى فى مخطوطات الأدب المختلفة، ومن هنا توطدت صلتى بعالم المخطوطات وحراسه أو كهنته، من أمثال الأستاذ فؤاد السيد، أمين مخطوطات دار الكتب المصرية، والأستاذ رشاد عبد المطلب أمين المخطوطات فى معهد إحياء المخطوطات بالجامعة العربية.

محمود شاكر في بيته:

وقد عرفت الطريق إلى بيت الأستاذ مرة ثانية، من هذا الباب، باب المخطوطات، وباب بعض الإخوة السوريين، الذين عرفت منهم أنهم يذهبون إليه مساء الجمعة من كل أسبوع، وعرضوا علىّ الذهاب معهم، فزرته هذه المرة وأنا شديد التحفظ فى كلامى، وتحدثنا معا، وطال بيننا الحديث فأحسست أنه أنس الىّ، ولعله اشتم فىّ رائحة المخطوطات هذه المرة.

وأخذت أتردد إليه، وكلما تعددت الزيارات توطدت الصلة، وكلما توطدت الصلة كثر الذهاب إليه، وأصبحت أزوره فى أوقات مختلفة ومتعددة، وليس يوم الجمعة فقط، وأسهر معه حتى منتصف الليل تقريبا. وقد اعتقل فى عهد عبد الناصر مرتين؛ ولا أريد أن أدخل فى الأسباب، وكان يخرج من المعتقل وفي حلقه مرارة شديدة، ما أظن أنها فارقته، وإذا سألته: لماذا اعتقلت؟ أجاب: لا أدرى، وهناك أسباب تحدثت بها المجالس والصحف بعد ذلك، تعود فى مجملها إلى علاقته بالشيخ أحمد حسن الباقورى.

وبعد تحرره من الاعتقال الثانى، الذى أعقب نكسة سنة ١٩٦٧، توثقت علاقتى به توثقا شديدا، حتى أنى كنت أذهب إليه، فى أى وقت، وأتناول معه ومع خلصائه طعام الغداء، الذى كان يعده كل يوم جمعة، وكان هناك خلصاء دائمون لا يتخلفون غالبا، وهم الشاعر محمود حسن إسماعيل، وعبد الرحمن وأخوه على ابنا أخى استاذنا الشيخ شاكر، والحسانى حسن عبد الله ومحمود الطناحى، وعايدة الشريف، ثم انضم إليهم فى أواخر أيامه الشاعر عبد الرحمن صدقى، كما كان هناك خلصاء غير دائمى الحضور وقت الغداء، وإن كان حضورهم فى المساء شبه مؤكد، وهم ناصر الدين الأسد، وحسين نصار، وأيمن فؤاد السيد وأخوه، ثم انضم أخيرا محمود مكى، وبجانب هؤلاء هناك

من يحضر الندوة فى أوقات مختلفة، تتباعد أحيانا وتتقارب أحيانا أخرى، مثل وديع فلسطين، وكامل السوافيرى، وعبد الصبور شاهين، وعادل جمال سليمان، وفى مقدمة أصدقائه الأديب يحيى حقى، الذى لم نكن نراه إلا فى أوقات تتلاحق ثم تتباعد، وأحمد بن مانع المستشار الثقافى السعودى، الذى ما كان يتخلف إلا نادراً. وعقد مرة مجموعة من الحلقات الدراسية الخاصة؛ ليشرح فيها بعض قصائد المفضليات والأصمعيات، وكان يحضرها الحسانى حسن عبد الله، وشابان كويتيان أحدهما اسمه: يعقوب الغنيم، والثلاثة كانوا طلبة فى كلية دار العلوم وكان بإمكانى حضور هذه الحلقات، ولكنى خجلت أن أنضم بنفسى إلى المجلس كأن الأمر فى حاجة إلى دعوة ثم ندمت أشد الندم على أن أضعت هذه الفرصة. وكان بيته مقصد طلاب العلم والأدب من جنسيات متعددة ومشارب مختلفة، وبعد وفاة الأستاذ العقاد، تحول أغلب تلاميذه ومريديه، وبخاصة الدرعميون إلى ندوة الأستاذ شاكر.

وكان يشارك فى الندوة من النساء عايدة الشريف، ولا تكاد تتخلف إلا إذا كانت على سفر، وقد عقدت صداقة مع حرم الأستاذ، وعرفت أيامها أنها تعد بحثا عن الطيور فى الشعر العربى، أو فى الأدب العربى، كما كان يشارك أيضا بعض السيدات مع أزواجهن، مثل حرم الدكتور ناصر الدين الأسد وحرم الدكتور حسين نصار، وحرم الدكتور الطناحى.

وفى بيته كان يحضر بعض السياسيين والوزراء من البلاد العربية، الذين تربطهم به علاقة فكرية أو أدبية، ومن الشخصيات التى قابلتها عنده الدكتور عبد الله الطيب المجذوب، صاحب كتاب المرشد إلى فهم أشعار العرب، وهو أديب سودانى شاعر وراوية يحفظ ويستشهد بذاكرة حاضرة عشرات القصائد، من الشعر القديم والحديث، والفصيح والشعبى السودانى، وكان يحضر كل عام، عندما يأتى إلى مصر بدعوة من مجمع اللغة العربية، وكان من أصدقائه القدامى، الذين حدثنا عنهم الإمام أحمد إمام اليمن وابنه الإمام البدر، والحبيب بورقيبة، رئيس جمهورية تونس السابق، الذى كان دائم الزيارة والاتصال به أيام أن كان لاجئا سياسيا فى مصر.

وكان رحمه الله فى بيته، ومع أصدقائه، إنسانا سهلا يفضل الحياة اليسيرة الفطرية الطبعية، أو المتسقة مع الفطرة، التى لا تعقيد فيها ولا تكلف،

كان يجلس بين أصدقائه، وتلاميذه كأنه أحدهم، لا تميزه منهم؛ فلا يتصنع ولا يتفلسف يستشير كل من يخالطه، ويطلب منه قراءة «بروفات» كتبه التى تعد للطبع فربما لم يتنبه لخطأ ما، وكثيراً ما أشركنى فى قراءة « البروفات»، وكان بعد تناول الغداء يتمدد على الأرض فوق البساط، وقد يتمدد معه بعضنا وقد يظل على كرسيه من يريد، وقد عرفنا منه أنه يعاون زوجته فى بعض أعمال البيت، ويقول مبتسما : ونصيبى من العمل هو غسل الأطباق، وقد حملنا كلامه على أنه نوع من الحث على مدّ يد المساعدة لمن يشاركنا حياتنا. وكان يعيش حياته معيشة لا تعقيد فيها ولا تصنع، شأنه شأن أى انسان لا يقسو على نفسه؛ فهو يشاهد «التليفزيون»، ويتابع المسلسلات العربية والأجنبية، وبخاصة إذا كان المسلسل الأجنبى ممتازا كما يشاهد الأفلام، ويحرص على مشاهدة مباريات كرة القدم. وكثيرا ماداعب أخاه محمدا، الذى يشجع الزمالك، بمحاولة الحط من قدر فريق الزمالك. وكان يتابع كل الصحف، من جرائد ومجلات، على اختلاف ألوانها وأنواعها، ويتصفحها جميعاً سريعا، ويتوقف عندما يهمه. أذكر مرة أن طالع مقالة فى «المصور» للأستاذ رجاء النقاش، وبسرعة طلبه «بالتليفون» ، وعاتبه على العنوان، وهو يضحك؛ فقد كان: «كرموهم قبل أن تفقدوهم»، وعدد رجاء جماعة من الذين يستحقون التكريم، منهم الأستاذ شاكر. ولم يكن يعطى الموت أكثر مما يستحق؛ فلا يبالغ فى الحزن ولا فى المظاهر الدالة عليه، كما هى عاداتنا؛ أذكر أنه بعد الانتهاء من قيامه بواجب تقبل العزاء فى وفاة أخيه محمد، طلب منى الذهاب معه إلى بيته ليعطينى نسختى من كتاب المتنبى، وحينما وصلنا إلى البيت فتح «التليفزيون» وجلسنا، كأننا لم نعد من سرادق العزاء.

وهو لا يتعامل فى شئون الحياة، إلا من خلال المحبة والعلاقة الشخصية والمودة المتصلة؛ فالحلاق يتعامل معه ويعرفه، قبل أن نتصل نحن به، ويأتيه إلى بيته فى مواعيد محددة، وعندما يريد. وتاجر الورق صديق يزوره هو والسيدة حرمه مساء الأحد من كل أسبوع، والمطبعة هى دائما مطبعة المدنى بإدارة الحاج محمد المدنى وابنه أحمد من بعده. والموزع مكتبة الخانجى ابتداء من الجدّ حتى الحفيد.

مقدرته علي الكتابة والتحقيق:

لقد كان قلمه فصيحا مفوها، إذا جلس يكتب انطلق متتابعا متلاحقا لا

يكاد يتوقف حتى ينتهى من الموضوع الذى يتناوله، وكان قادرا فكرا وبيانا على أن يسود آلاف الصفحات؛ ولكنه لم يشأ أن يتاجر بالكتابة؛ فهو لم يكن يكتب إلا مضطرا، لتوضيح قضية، أو للدفاع عن قضية. وكان إذا كتب موضوعا قرأه على أصدقائه وتلاميذه، وقد يعيد صياغته، أو يغير من اتجاه تحليله إذا اقتنع برأى بعضهم.وكان يأبى أن يأخذ أجراً من صحيفة أو مجلة مقابل ما ينشره.

وكما ضنّ بقلمه المعبر عن فكره وأدبه ونقده، عن الانطلاق بلا حساب ولا هدف، سوى الانتشار والذيوع، وربما المكسب المادى، كما فعل أنصاف الكتاب – ضنّ أيضا بقلمه عن الشيوع والرغبة فى الشهرة، وكثرة النتاج بالنسبة إلى تحقيق الكتب. وكان الأمر بالنسبة إليه ميسرا تماما؛ فعنده نسخ خطية لبعض المخطوطات؛ ومنها مثلا مخطوطات لشعر أبى العلاء، وبخاصة اللزوميات. وعنده قبل ذلك مكتبة ضخمة، تضم أمهات المصادر والمراجع، اللغوية والأدبية والتاريخية والشرعية، وهى مكتبة اعتنى بها، وضمنها ما ييسر له العمل والإفادة منها فى سرعة ويسر؛ فقد كان يدون على الهامش، بجوار كل خبر أو نص ورد فى كتاب، بياناً بصفحات وأجزاء الكتب الأخرى، التى ورد بها، وهكذا فى كل كتاب، بحيث إذا رجع إلى أى كتاب عرف منه أين يوجد النص أو الخبر، فى بقية المصادر أو المراجع، وكان وهو يقرأ إذا صادفه مصدر أو مرجع جديد لمعلومة، قام بلهفة ونشاط ليدون ذلك، فى الكتاب الجديد والكتب الأخرى، بلا أدنى تأخير. وقد عرف ذلك بعض تجار تحقيق الكتب؛ فكان يأتى بحجة الزيارة، ثم يمد يده إلى بعض الكتب لينال مأربه، وكان رحمه الله خبيرا بهم.

هل كان سلفيا؟

هل كان محمود شاكر سلفيا؟ نستطيع أن نقول : نعم بالنسبة إلى موقفه من الاستعمار، وإلى موقفه الفكرى، فهو يدين كل فكر جديد، وكل مجدد فى السياسة أو فى الدين أو فى الفلسفة، من رفاعة الطهطاوى وجمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وسعد زغلول ، وهو سلفى بالنسبة إلى الفلاسفة والمتصوفة وإلى بعض العلوم مثل علم النفس أو علم السحر، كما كان يطلق عليه ذلك مبتسما، كما يؤمن بأن هناك مكائد ومؤامرات، تدبر ضد هذه الأمة، وأن الماسونية هى التى توجه وتتحكم من خلف الستار، وأن والده قد استدرج

إليها، ولكنه لم ينغمس فيها، واستطاع أن ينفلت من أسرها.

ونستطيع أن نقول: لا؛ لأنه لم يكن سلفيا بالنسبة إلى مواقف اجتماعية وفكرية ودينية؛ إلا إذا قلنا: إنه نوع من التسامح مع المخالفين فقد كان مجلسه مختلطا فى الغالب، يجلس فيه الرجال والنساء معا، ويتناقش الرجال والنساء. وكان إذا حان وقت الصلاة يدعو إليها فيقوم معه من يقوم، ويتوضأ من يريد، ويجلس من يجلس، فلا يتشدد فى شئ من هذا؛ ومما يدل على تسامحه، بعيدا عن تشدد السلفيين أن ابن أخيه عبد الرحمن، الذين كان أقرب الناس إليه، ولا يكاد يفارقه - جرفه تيار الماركسية وألف كتابا عنها؛ فكان يقول ضاحكا: هذا ابن أخى شيوعى، معترفا بالواقع، مقدرا ظروف الشباب والعصر والتيارات الفكرية والسياسية، ناظرا إلى أنها مرحلة من مراحل المراهقة الفكرية لا تلبث أن تزول، ولقد غير عبد الرحمن من مسيرته بعد ذلك، وأصبح شيخا يتحلى بلحية أفغانية.

شاكر والمستشرقون:

من المعروف أن الشيخ شاكراً لا يعترف بقدر المستشرقين، ولا يثق فى نواياهم إطلاقا، كما لا يثق فى علمهم، وقد شاهدت بنفسى موقفا يجسد هذا ففى يوم غير يوم الجمعة، حضر أيمن فؤاد السيد، ومعه مستشرقان فظهر الاستياء على وجه الأستاذ، واستقبلهم بفتور شديد، وإذا سئل عن موضوع أغلقه، أو لم يجب. وبعد جلسة صامتة قصيرة عادوا من حيث أتوا؛ فتنفس الصعداء وقال: أنا لا أرتاح لهؤلاء الناس، ولا أريد أن أقابل أحدا منهم. قد يقال: هذا هو الغالب؛ لأنه سمح لمستشرقة ليست شابة أن تحضر مجلسه أكثر من مرة ، ويجيب عن أسئلتها، وحينما طلبت أن يعينها أحد على معرفة وإتقان تجويد القرآن الكريم، تطوعت أنا للقيام بهذه المهمة فكنت أدرس لها بالمركز العلمى الفرنسى فى المنيرة، وإن كنت قد فشلت فى تدريبها على النطق السليم، حسب قواعد التجويد، فهل عاملها هذه المعاملة؛ لأنها جاءت عن طريق صديقه الحميم يحى حقى؟ هذا هو السبب غالبا.

شاكر والشيعة:

وكما شاهدت موقفه من المستشرقين، شاهدت موقفه من بعض الشيعة، ولم يكن حال الشيعة أفضل؛ فقد جاءه فى يوم ما ثلاثة من شيعة العراق، وبعد أن جلسوا بوقت قصير أثيرت قضية خلافية، لا أدرى من آثارها، وكانت النتيجة أن خرج الثلاثة بعد جلسة قصيرة، ملأها الأستاذ بالجدال والحوار الذى

أغضبهم.

وموقفه هذا من المستشرقين ومن الشيعة، يحتاج إلى تفسير يوضح دوافعه، ويتتبع جذوره، وليس فى وسعى سوى التساؤلات والإجابات التى سأعرضها. ونسأل: هل أساس نفوره من المستشرقين هو اختلاف الدين، وعدم قبوله للشيعة هو اختلاف المذهب؟

ما أظن ذلك؛ لأنه يتسامح ويصادق غير المتدين، أى المسلم العاصى وغير المسلم فمقولة اختلاف الدين أو المذهب لا تفسر هذا، وبخاصة إذا عرفنا أنَّ له أصدقاء من المسيحيين، ولكنه يلاحظ أنهم من عرب الشام أسلاف الغساسنة ومنهم وديع فلسطين وفؤاد صروف صاحب المقتطف، وشفيق مترى صاحب دار المعارف، الذى كان يقوم بنشر تفسير الطبرى، والذى خلد الأستاذ شاكر التقاءه به فى قصيدة القوس العذراء.

ومادام هناك شك فى أن يكون السبب، هو اختلاف الدين، فهل يمكن أن يكون السبب هو اختلاف الجنس، هو تعصبه للعرب، وبهذا يكون هناك حاجز بينه وبين غير العربى، يحتاج إلى جهد لاجتيازه، ومن هذا المنطلق نفسر دفاعه عن الدولة الأموية وعن معاوية، لأنهم أقاموا الدولة العربية، والطريف أن هناك اتفاقا بينه وبين حزب البعث فى الإشادة بالدولة الأموية، لأنها فى نظر حزب البعث الدولة التى تجسد حلم القومية العربية.

وهذا الدافع يفسر كثيرا من مواقفه وتصرفاته؛ فهو يعتزُّ اعتزازاً شديداً ويتعصب تعصباً بالغا للغة العربية، وللثقافة العربية وللأدب العربى، وقبل كل ذلك للدين الإسلامى، الذى منبته ولسانه عربى، وهو يعادى كل من يعادى أيا من هذه الجوانب.

ونستطيعأن نقول: إن موقفه من الشيعة يمكن تفسيره على أساس تعصبه للعرب أيضاً؛ فقد ركب الموالى موجة التشيع، وقسموا المجتمع الإسلامى وحاولوا أن يخربوا الإسلام من الداخل، وتعصبوا ضد العرب فى شعوبية بغيضة.

وفى النهاية نقول: إن شاكرا يتنازعه عاملان مؤثران هما العروبة والإسلام، وهما قد امتزجا عنده امتزاجا كاملا، حتى ليصعب على الإنسان الفصل أو التفرقة بينهما، فهما شئ واحد؛ ولهذا فهو يدافع عن الشعر الجاهلى كأنه

يدافع عن القرآن؛ وإذن فالمساس بأيهما مساس بالمقدس الذى يجب أن يصان ولا يمس، وإلا فالحرب الضروس.

موقفه من الحضارة الغربية:

قلنا إن العروبة والإسلامية أصبحا عنده شيئا واحدا، فالإسلام هو الوجه الثقافى والحضارى للعروبة، والعروبة هى الحصن الذى اختاره الله للإسلام، واللسان الذى ينطق به. والغرب منذ أن انطلق فى نهضته لاهم له إلا محاولة القضاء على الإسلام وعلى العروبة بشتى الطرق، بالحرب المعلنة والحرب الخفية، بالسلاح سواء عن طريق الحملات الصليبية والموجات الاستعمارية، أو بالغزو الثقافى والحضارى، وبالتالى محو الشخصية والهوية والابتعاد تدريجيا عن الجذور، وعن الاعتزاز بالأسلاف وتاريخهم؛ ومن ثم يسهل الانسلاخ والتشويه، إن لم يكن المحو أو الضياع.

وعلى هذا فكل من يحاول التوفيق بيننا وبين هذه الحضارة، أو المصالحة أو حتى المهادنة معها - هو عميل لها، وهو عدو يجب أن يحارب، أو على الأقل يهاجم وتهاجم أفكاره.

وعلى هذا يتضح لنا موقفه المناهض لما يشيد به دعاة التنوير، منذ الشيخ حسن العطار، ومن جاء بعده، مثل رفاعة الطهطاوى، وجمال الدين الأفغانى، ومحمد عبده، ورشيد رضا والمراغى، وطه حسين وغيرهم، وكل من يحاول التوفيق بين ما جاءت به الحضارة الغربية وثقافتها، وبين ثقافتنا فى نواحيها وفروعها، سواء أكان فى القوانين أو فى الأدب، أو فى الأفكار، أو فى العلوم والمعارف السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفلسفية والنفسية، ويرى أن هؤلاء يمثلون جسور الربط بين الحضارتين الغربية والإسلامية العربية، ويجب أن تحطم هذه الجسور.

وعلى هذا يتضح لنا أيضا موقفه الحذر والمتخوف من الغرب، والإحساس أن هناك مؤامرة يدبرها العدو الأوربى، الذى لا يهدأ، ولا ينسى الماضى، والمتحفز دائما للانقضاض، واليهود الذين لم ينسوا أبدا أنهم أخرجوا من الجزيرة العربية، وأن الإسلام انتصر عليهم، وأنهما كما يهاجمان فى العلن يتآمران فى الخفاء؛ ومن هنا كان إيمانه بحقيقة التآمر الغربى واليهودى، وبوجود تنظيمات سرية تعمل على تنفيذ هذا التآمر، واتهام كل مفكر يحاول التوفيق بين الحضارتين،

أو يبشر بالحضارة الغربية، ويدعو إلى التعاون معها والأخذ عنها بالعمالة، وأنه قد جنّد، فهو إما أن يكون عضوا فى الماسونية، وإما أن يكون تلميذاً للمستشرقين جندوه ونشئوه ليكون فى خدمتهم؛ فلويس عوض مجند جنده المستشرقون، ورفاعة الطهطاوى أيضا مجند جنده المسيوجومار، ودجنه البارون سلفستر دى ساس المستشرق، ومحمد عبده وأستاذه جمال الدين الأفغانى ماسونيان، وهكذا.

وعلى هذا يتضح لنا أيضا دفاعه عن تركيا والخلافة العثمانية فهى التى فتحت القسطنطينية وأذلت أوربا زمنا بجيوشها الجرارة، وهى التى وقفت حصنا حصينا ضد عدوان هذه الحضارة؛ وبناء عليه فكل خروج عليها خروج على الذات وعلى الإسلام؛ ولذا فكل من محمد على وابنه إبراهيم عملاء لأنهم حاربوا الثورة الوهابية الوليدة لمصلحة العدو الاستعمارى، وهاجموا دار الخلافة العثمانية للمصلحة نفسها، وسلح الغرب محمد على، وقواه من أجل تحقيق أهدافه هو، وحينما تضخم قصم ظهره وحطمه.

وعلى هذا الأساس نستطيع تفسير انضمامه إلى الحزب الوطنى كذلك؛ فهذا الحزب وقف بقوة ضد الإنجليز، ولم يهادنهم، ووقف بقوة مع التجمع العربى الإسلامى ضد الإستعمار الغربى، وضد محاولات التمزيق للجامعة الإسلامية، ولا يقلل من شأنه استعانته بفرنسا على انجلترا فى محاربته إياها.

كما نستطيع تفسير إصراره وحرصه على أن يأكل بيده، ويرفض استعمال أدوات المائدة من ملاعق وشوك وسكاكسن، وما الى ذلك، وإصراره على حساب عمره بالتاريخ الهجرى.

ومن هنا نستطيع أن نقول: إن الخلاف بين محمود شاكر وطه حسين، هو فى الأصل اختلاف بين شخصيتين، تمثل كل منهما وجهة نظر مختلفة عن الأخرى، شخصية تتخذ موقفا رافضا للحضارة الأوروبية ، وتتخوف وتتشكك فى كل ما يأتى من طريقها أو ينتسب إليها، وشخصية مبهورة بتلك الحضارة تتمنى أن تعيش فى نعيمها، وأن تمد ظلها علينا وعلى بلادنا، وأن نتشبه بها ونسير فى طريقها الذى سلكته. وبالتالى فالأول معتز بكل ما يتصل بأصوله، وبجذور حضارته وفروعها، وهى عنده جزء من عقيدته وثقافته المقدسة، التى يجب ألا تمس؛ فما بالك إذا جاء إنسان، وهو الشخصية الثانية (طه حسين)، وحاول أن يقتلعها من جذورها، بإنكاره وجود جذر من جذور الثقافة ، وهو

الشعر الجاهلى.

فالقضية بالنسبة إلى محمود شاكر قضية وجود وهوية، وليس محض إنكار مجموعة قصائد من الشعر، ولذلك كانت الثورة عارمة.

بقى لنا أن نسأل: هل استطاع هو شخصياأن ينجو من آثار هذه الحضارة فضلا عن أن يجنب غيره آثارها؟ وهل كان يعاديها عداء كاملا بحيث يقاطع ويرفض كل ما يتصل بها؟

أولا: هو لم يستطع النجاة منها، أو تجنب آثارها؛ فقد كان يلبس لباسها ويستمتع بمنجزاتها الحضارية، من تليفون إلى مذياع إلى تليفزيون وسيارة وطيارة وغيرها وكل ما استطاع أن يفعله أنه استغنى عن أدوات المائدة، واعتمد على يده فى تناول طعامه، وأنه كان يؤرخ ويحسب عمره بالتاريخ الهجرى.

ثانيا: ما أظن أنه كان يرفضها رفضا مطلقا بدليل أنه حين أصيب فى مطلع شبابه بهزال وضعف، مع إعياء شديد، استعان بجمعية فى انجلترا تعالج بالوسائل الطبعية عن طريق أنواع الطعام، والتمرينات الرياضية، فأرسلت إليه الجمعية قائمة بأنواع الطعام، وكان منها عصير البرسيم، وأنواع مختلفة من الخضروات، مع برنامج رياضى، وقد تحسنت صحته بهذا العلاج الغذائى الرياضى تحسناً كبيرا، وظل مواظبا على الرياضة يمارسها كلما أمكنته ظروفه.

إنه لم يكن يرفض الحضارة الغربية، ويعاديها، حبا فى الرفض والعداوة، إنه يرفض عدوانها وتسلطها وتآمرها، يرفض الثقافة التى تريد أن تفرضها علينا وتمحو بها شخصيتنا، إنه يرفض الارتماء فى أحضانها والذوبان فى مياهها والتخلى عن أخلاقنا وقيمنا؛ بحيث نصبح مسخا مشوها.

أما الإفادة من هذه الحضارة، من علمها ومنجزاتها وتقنياتها، والتتبع الحصيف لأسرار تقدمها؛ فهو واجب، والتخلى عنه جريمة، ولابد من القيام به، وما أظن عاقلا يقول بغير هذا، فضلا عن أن يكون الأستاذ محمود شاكر بقامته العملاقة فى العلم والأدب.

وبعد فالأستاذ محمود شاكر أكبر من المديح والتنويه والثناء رحمه الله رحمة واسعة وجزاه الله خيرا على ماقدم للدين والعلم والأدب.

«مدخل إلى منهج محمود محمد شاكر»

بقلم الدكتور

كمال عبد الباقي لاشين

محتوى البحث:

الفقرة[١]: جلوسي إلى أبي فهر محمود شاكر - ماكنت سمعته منه في تسمية علم المسلمين والعرب «تراثا قديماً» -ما كتبه هو في ذلك. وجهته في تجنب تلك التسمية.

الفقرة[٢]: ماسمعته منه في كلمة «المنهج». ما كتبه في ذلك- تطبيق المنهج وحفظ قواعده - حدة الشيخ حين يخالف ومردها- حديثه عن اتقان العمل في القوس العذراء وصلته بالمنهج العلمي.

الفقرة [٣]: كيف استقام له منهجه- تحيره بعد محنته مع الشعر الجاهلي - القراءة الجامحة - القراءة الجامحة تفضي به إلى أول أبواب منهجه - منهجه من منهج الأسلاف ولم يبتدعه - منهجه قائم على «التذوق».

الفقرة [٤]: ماقبل المنهج والمنهج - الأصل الأخلاقي في المنهج- عواصم المنهج- رد على طه حسين في أمر من أمور المنهج.

الفقرة[٥]: منهج العرب والمسلمين متى بدأ؟ وكيف استتم؟ رأيه في مناهج المستشرقين فيما كتبوه عن علم العرب والمسلمين - خطر المستشرقين جاء من بعض من تابعهم وليس منهم هم.

الفقرة[٦]: منهجه العلمي قائم على «الدفع» و «التأسيس» - معارك الشيخ وحدته مع من خالفه.

الفقرة [٧]: وجه التشابه بين منهجه ومنهج «ابن قتيبة» - رد ابن قتيبه على عادية (أهل الخلاف) حين عدت على القرآن والحديث - رده على العادية التي عدت على علوم اللغة والأدب والكتابة - عادية زمن ابن قتيبة وعادية زمن أبي فهر.

الفقرة [٨]: منهج أبي فهر في قراءة: «طبقات فحول الشعراء» لابن

سلام- عمله قراءة لا تحقيق - رأيه في «علم التحقيق»- إقدامه في نشر الطبقات على مالم يصنعه غيره.

الفقرة [٩]: منهجه في مدارسة القصيدة العربية. الباب الأول من المنهج: نسب القصيدة . . . الباب الثاني منه: رواية القصيدة- الباب الثالث منه: تحليل القصيدة - التحليل عمل الناقد لا المتذوق - الاستدلال - التذوق . . . ألفاظ الشعر - نغم الشعر - عاطفة الشاعر .

الفقرة [١٠] : هوامش البحث، ومراجعه.

* * *

(١)

الحمد لله بما هو أهله من الحمد، والصلاة والسلام على رسل الله وأنبيائه: حَمَلَة شرائعه، وصَفْوته من خلقه . . . . وبعد . . . فقد كان من جملْة نعم اللهَ عَلَيّ - وهي كثيرة والشكر قليل - أني كنت ممن جلس إلى الأستاَذ الجليل: أبي فهر محمود محمد شاكر - رحمه الله - فنفعه الله بعلمه، فيمن نفعهم بعلمه جلست إليه، فسمعت منه، ورأيت . . . فعرفت . . وأنكرت . . . . ثم إني قرأت له بعد ذلك وحدي، وصرت أمزج قراءة له بسماع منه، فإذا قرأت، توقفت، والتمست شيئا كنت سمعته منه يعينني على فهم ما أقرأ، وإذا ورد عليّ شئ كنت سمعته طلبته في كتبه والتمسته، فوجدته أو ضَلَلْته، ورأيت في هذه الطريقة عونا على تحرير الآراء، وفهم الأقوال، وفهمت منها أن من جالس العلماء.

وسمع منهم، أحسن حظا ممن قرأ وحده ولم يلق العلماء، وأذكر الآن - أن الشيخ كان ربما تغير وجهه في مجلسه، وأخذتنا منه نظرة المغضب، إذا سمعنا - نحن الناشئة - نسمي ما أُدِّيَ إلينا من علم العرب والمسلمين «تراثا قديما» - وهي تسمية سائرة - أو إذا سمعنا نهوّل بلفظ «المنهج» ونملأ أفواهنا به، محاكاة لما كنا نقرؤه يومئذ، ونسمعه من أن : العلم: كل العلم هو المنهج، وأن علم الغرب أكثره بمنهج، وعلم العرب أكثره بغير منهج؛ فلهذا تقدم علم الغرب، وتأخر علمنا، وأسرعوا، وأبطأنا.

أما تسمية علم العرب والمسلمين تراثا قديما» ، فإنه كان يقول: إن هذا

منته لا محالة الي جعل هذا العلم كلّه وراءنَا، والأصل أنه أمامنا يهدينا، وإلى أن يُلقى به خَارجنا، وحقه أن يكون فينا، نبنى عليه به، وبما يستجد على الأمة من أحداث وأحوال، توجِب علما فتوجِده.

وكان يستدل بأن الطبقات التى توالت، فى سلسلة تاريخ العلم والعلماء عند العرب والمسلمين، لم تسمّ عِلم منٍ تقدمها بهذا الاسم، ولا نعتته بهذا النعتِ، بلٍ تلقفته على أنه «نسيج» واحد، تنسج كل طبقة فيه خيطا أو خيوطا، و«بِناء» يِتِتامُّ، يرفع كل جيلٍ فيه لبنة أو لَبِنَات.

وقد طلبت هذا الذى كنت سمعته منه، فى بعض ما كتبَ فوجدته يقول حين ذكر ناشئة الشعراء والنقاد الذين اتجه إليهم بحديثه: «فإن مآل هذا الأمر كَله إليهم، فهم ورثة هذه اللغة، بمجدها، وشرفِها، وجمالها، وفنّها، لا ينبغى أن يضللهم عنها، أو يعثر إليها خطاهم، من عمَد إلى إرث آبائهم ، من لدن إبراهيم واسماعيل، عليهما السلام، إلى يوم الناس هذا، فسمّاه لهم «تراثنا قديما» ؛ ليجعلَه عندهم أثرا من الآثار البالية، محفوظا فى متاحف القرون البائدة»

وكنت أتردد على مجلس الأستاذ مع أخى وصاحبى القريب، قبل أن يباعد بيننا الموت: مع رجب إبراهيِم خليل – طيب الله ثراه وغفر له – وكنا إذا انقلبنا من مجلسه، تذاكرنا بعض ما سمعناه، وتراجعنا القول فيه، وكان هو شديد التسليم للشيخ فى كل ما يسمعه منه،، أو يقرؤه له، وكنت أنا ربما توقفت لاتبيّن – بعلم كان توقفى أو بغير علمٍ، وكنا نتمارى . . . واذكر أنى قلت لرجب يومئذ كلاما معناه: وما الذى ينكر شيخنا من تسمية علم العرب والمسلمين تراثا، والناس تقوله، وتألفه؟ ولِمَ يأباه واللغة لا تأباه؟

فالذى فى أيدينا من العلم – وفى أيدى كل جيل كان قبلنا، أو يأتى بعدنا – إما أن يكون «إرثاً» موروثاً، أو «كسبا» مكسوباً، أو «غريباً» مجلوباً، و«الإرْث» و«الورث» و «التراث»و«الميراث» : ما وُرِثَ: أى ما كان لمن قبلك كسباً، ثم بقىَ، فآل إليك(٣) . و«الكسب» : الإصابة والتحصيل، ولا يكونان إلا عن سعى منك(٤)، فإذا بَقِى وآل إلى من بعدك، صار له ميراثا، وهكذا . . . .

وبقيتُ زمنا لا يستقيم لى وجه من النظر يوجب إنكار ما أنكره شيخنا . .

. . فَلمَّا غلبت دعوةُ «الحداثة» من الفكرو الأدب، وانتهى غلواؤها إلى الدعوة إلى «القطيعة المعرفية»(٥)، فقفزت على علم العرب والمسلمين قفزاً، وألقته مشمئزة منه، غير مبالية به نظرت واستقام لدىّ أن من جملة ما هوّن عند هؤلاءدعوتهم – وهى عظيمة–، وسوّغها – وما هى بسائغة – أنهم سمّوا علم العرب والمسلمين تراثا قديما بل سمّى لهم – كما قال أبو فهر –، وذلّلت الألسنة تلك التسمية، فأطمأنت إليها العقول، وأخذت بظاهر معناها، فهانَ ذلك العلم على من هان عليه.

وحين راجعت عبارة الشيخ «. . . . . فسمّاه لهم تراثا قديما؛ ليجعله عندهم أثرا من الآثار البالية، محفوظا فى متاحف القرون البائدة» علمت أن مراده فى قوله «فسمّاه لهم، وقوله: «ليجعله عندهم . . .» أى مَنْ سَمّى؟ ولِمَ سمّى؟ وهذا مراد صحيح لا يردُّ عليه بأن اللغة تجيز أولا تجيز وأنها تأبى أوَلا تأبى، وليس هو بالذى يخفى عليه هذا.

لقد كان يرى ببصر حديد، وبصيرة نافذة، وينظر إلى ما وراء التسمية ومن وراءها وماهى منتهية إليه، من سوء العاقبة(٦).

* * *

(٢)

وأما «المنهج» فإنى سمعت أبا فهر يقول عنه: إن التهويلَ بذكر المنهج، والتبجح به شئ، وأن يكون لك فى العلم منهج مَرْضىٌّ على الحقيقة شئ آخر؛ فالمهم هو «تطبيق المنهج»، لأن حفظ «قواعد» مجتلبة للمنهج، لا تصنع وحدها لمن حفظها منهجا، إلا إذا صنعت قواعد النحو وحدها ممن حفظها بليغا مبيناً، وإذا صنعت قواعد العروض وحدها ممن حفظها شاعراً. وكان يقول: حيث يوجد «الإتقان»، و«الدأب»، و«حسن التأتى» فى العلم يوجد المنهج، وكل ما جاء من العلم على هذه الشريطة عند المسلمين وعند غيرهم هو علم بمنهج صحيح.

وحين طلبت هذا الذى كنت سمعته منه، فيما كتب، وجدته متفرقاً – وسيأتى فى مواضعه – وأوضح نص وأجمعه فى هذا قوله: «ولأول مرة فسرت حقيقة عملى فى «دراسة أسانيد الكتب الأدبية» كالأغانى لأبى الفرج

الأصبهانى، وكالموشح لأبى عبيد الله محمد بن عمران المرزبانى، وهو أساس لكل دراسة، لكتبنا الأدبية التى سارت على المنهج الصحيح، فى إسناد الأخبار، والآثار، والأشعار، لم أكتبه من قبل، لأنى لست ممن يتبجح، ويتباهى بشئ فعله، وكنت، ومازال أرى أن تطبيق «المنهج»، خير وأمثل، وأجدى من وضع قواعد للحفظ، لا يعرف من يحفظها كيف يطبقها، ومنهجى مبثوث فى كل ما نشرت من الكتب، وفى كل ما كتبت بيدىّ، وفى كل ما أرشدت إليه، من استرشدنى من طلبة العلم، وهذا حسبى»(٧).

والذى قاله، مستقيم، ملتئم مع صحيح العقل والنظر. فتطبيق المنهج أجدى فى العلم من حفظ قواعده مع العجز عن تطبيقها. وبعض من ذكر المنهج، ولهج به حتى عرف بذلك لا ترى له فى تطبيقاته العلمية منهجا فذاً يكافئ إكثاره النظرى بذكر المنهج.

أما أن للشيخ منهجا فيما قرأ من الكتب، وفيما كتب بيديه، فنعم، وقل المخالف فى هذا، وأما أنه لم يكن يتبجح أو يتباهى بما فعل، فنعم أيضا - إلا أن يستثار أو يحفظ، ومما يستدل به على هذا أنه نشر كتاب طبقات فحول الشعراء أول مرة سنة ١٩٥٢م، ثم عاد فنشره ثانية سنة ١٩٧٤، ولم يذكر صنيعه فيه وجهده - وهو صنيع فذ وجهد جهيد - إلا فى ١٩٨٠، عندما أثاره الدكتور على جواد الطاهر، بنقد عمله فى مقال بعنوان «طبقات الشعراء . . . مخطوطا ومطبوعاً»(٨).

وإنما قلت: إلا أن يستثار أو يحفظ، لأنه - رحمه الله - كان إذا استثير، أو أحفظ، تكلم عن عمله فأكثر، ورمى فأوجع، حتى يبلغ فى ظاهر اللفظ درجة المتباهى المستكثر، يدفعه إلى ذلك الاضطرار، ومرارة نفس حادثة، أو تأصل طبع فيه، وهو يذكر هذا فى قوله: «والحديث عن النفس عمل أكرهه، ولكنه يكون أحيانا ضرورة، لا غنى عنها . . . فالجيل الذى يستقبل اليوم هذا الكتاب - يقصد كتاب المتنبى - لم يشهد تلك الأيام الغابرة، ولا يعلم عنها علما يغنى، أو يفيد . . . بل لعله يعلم عن هذا الغابر أشياء قليلة على غير الوجه الصحيح الذى كانت عليه، وإنما اكتسبها الجيل الحاضر من الثرثرة التى تنشر أحيانا فى بعض الصحف والمجلات»(٩)

وهو لا ينفى أن فيه عنفا وصرامة، فيقول لمخاطبه فى القوس العذراء.» وإذا

كانت ثرثرة حيائى، قد صكّت مسامعك ببعض عنفى، وصرامتى، فعسى أن يبعث فى نفسك بعض الرضى، ما أرويه لك من بقايا تلك الأحاديث، التى رافقتنى منذ فارقتك، إلى أن استقرت بى الدار»(١٠)

وكان قال له قبل هذا: « . . . فقد أوتيت أنا ضرْبا ثرثاراً من الحياء، يطلق لسانى أحيانا عند البغتة بما لا أحب أن أقول، وبما لا أدرى كيف جاء، ولم قيل!»(١١) قلت: ومن العجيب حياء ثرثا يطلق اللسان . . . .

وأما أن لباب المنهج عنده هو «الاتقان» و«الدأب» ، «وحسن التأنى» ، فرسالته: «القوسِ العذراء» كلها بيان لهذا، واستدلال عليه، وهى صدى حوار مع صديق لم يسمه هو، ووصفه فقال: صديق لا تبلى مودته. وسماه الأستاذ عادل الغضبان فقال: هو شفيق مترى، صاحب دار المعارف(١٢)

دار حوار الصديقين «على اتقان الأعمالِ التى يتاح للمرء أن يزاولها، فى لمحة خاطفة من الدهر، نسميها نحن الناسَ: العمْر»!!(١٣).

ومضى أبو فهر فى حديث عن الإتقان عالٍ، لا يقدر عليه إلا من اجتمع له مثل نفاذ فكره، ومضاء لسانه، فقال:

(١) الإتقانِ فى كل حَىًّ، بل فى كل مخلوق، فطرةٌ أصلية، وخلق لا يتبدل، فهو يسير «عليِ نهج لاحب لا يختل، يؤيده هدى صادق لا يتبدل»(١٤) وضرب مثلا بالنِّمال، وقال إنها- أى أمة النِّمال- «لا تتحول عن نهج، ولا تمرق من هدى، وتاريخ أحدثها ميلاداً، فى معمعة الحياة، كتاريخ أعرق أسلافها هلاكا فى حومة الفناء، لا هى تحدث لنفسها نهجا لم يكن، ولا هى تبتدع لوارثها هدَيا لم يتقدم»(١٥)، حتى صار كل عمل تعمله متقنا، وإن لم تجهد فى إتقانه، ثم قال: «إلا الإنسان !! إلا الإنسان!!»(١٦)

٢- والإنسان . . . ما خلق سُدىً، ولا ترك هملا . . . أُودِع فيه خالقه أول الأمرِ النهجِ المستقيم، وفجِّر فيه سرائر الإتقان، حتى يتكاثر ويستحكم، . . ثم إنه خير بعد فاختار، فعرف وأنكر: عرف فاعتبر، وأنكر فاستنكر» وكأنه من يومئذ حاد عن المنهج الذى لا يختل، ومرق من الهدى الذى لا يتبدَّل»(١٧).

٣- ومن يومها، وهو يطلب «الإتقان» فيدركه أو يخطئه، فباين فى هذا

أوليته، وباين فيه سائر المخلوقات غيره، وصار اتقانُهُ ما يَعْمَلُ اكتساباً ودأباً، لا طبيعة، وخلقه(١٨)

٤- هكذا صار الإنسان، وصار عمله، فإذا تأتى وأحسن التأتى، ودان لفطرته المكنونة فيه، منذ أن ولد، وأفضى إلى خبئها التليد، أدرك سرائر الإتقان الذى كان أعْطَاه أولا، وإذا دبت بينه وبين عمله جفوة، ضاعت منه تلك السرائر فتحيَّر . . . .(١٨).

٥- فباب الإتقان إذن هو «الدأب» و «حسن التأتى» فيما قصد إليه الإنسان من العمل، «فإذا دربِ الإنسان عليه - أى العمل - وصبرَ أزال الثرى عن نبع متِدفق، فإذا ألَحّ ولم يملّ انشقت فطرته عن فيض متدفق، ويومئذ بسفر لعينيه مَدَبُّ النهج الأول، بعد دروسه وعفائه . . . . ، وإذا كل عمل يفصم عنه متقنا، وكأنه لم يجهد فى اتقانه» .(٢٠)

وهذه - كما ترى - فلسفة حسنة، وكلام بعيد الغور عن الإنسان وعمله، بين «الفطرة أو النهج الأول، «والاكتساب» الناشئ عن الاختيار يوم أن خيِّر الإنسان فاختار.

وهذا وإن كان كلاما فى العمل بوجه عام، وفى اتقانه متى يتحققُ، ومتى يتخلف؟ إلا أنه واقع فى قلب الحديث عن «المنهج العلمى» لأنه من جملة عمل الإنسان . . .، وقد أشار فى موضع آخر إلى أن صنيعه فى «القوس العذراء»، كان جاريا على المنهج الذى اشتقّه لنفسه، وهو منهج «تذوق الكلام»(٢١)، وسيأتى الحديث عن منهجه فى التذوق.

* * *

(٣)

متى استقام للشيخ منهجه؟ .ذكر هو أنه لما أصابته «محنة الشعر الجاهلى» عام ١٩٢٦، بقى متحيرا عشر سنوات إلى ١٩٣٦، لايكاد يهتدى إلى جادة يقين، لا تقدح فيه الرِّيب، فأفضى به تحيره إلى «قراءة جامحة» للشعر الجاهلى غير مبال أن يكون مصنوعاً - كما قيل له - أو غير مصنوع ولم يكن فى هذه القراءة طالبا لمنهج يتبعه، بل كان أبغض شئ إليه يومئذ، كما قال كلمة

المنهج، وحديث المنحول وغير المنحول(٢٢).

ثم إن هذه القراءة الجامحة التى طالت، قذفت به - كما قال - إلى أول طريق المنهج، لأنه سخر فيها كل «فطرته» التى فطره الله عليها، وجمع لها كل «معرفة» أمكنه أن ينالها بالسمع، أو البصر، أو الإحساس، أو القراءة، غير مغفل، ولا متهاون، فقرأ التفسير، وعلوم القرآن علي اختلافها، ودواوين الحديث، وشروحها، وما تفرع عليها من علوم، وكتب الفقه، وأصوله، وأصول الدين، والملل والنحل، والأدب، والبلاغة، والنحو، واللغة، والتاريخ، وما شاء الله غيرها من أبواب العلم، وأسفاره(٢٣).

فانتهيت به هذه القراءة الجامحة الواسعة، الباحثة عن خبايا الكلام وخوافيه، وما تدل عليه هذه الخبايا والخوافى من أسرار النفوس، ونظر العقول = انتهت به كما قال إلى منهجه فى «تذوق الكلام»، وهو منهج جامع شامل متشعب الأنحاء والأطراف ، فعض عليه ولم يفارقه من يومها(٢٤)

لم يبتدع هذا المنهج ابتداءً وبلا سابقة - كما قال هو - وإنما الذى له، أنه جمع شتاته فى قلبه، وأصَّلَ أصوله لنفسه، بطول التنقيب، وكثرة التفتيش، أى بالدأب وطلب الاتقان - فاستنبطه بعد خفاء، وجمعه بعد تشتت، ولا ترم بين أوصاله بعد تفكك، فهو منهج نابع من صميم مناهج الآباء والأسلاف(٢٥).

وهذا المنهج لم يجتمع له، ولم يستقم - كما قال - إلا بعد أن علم أن كل شعر ونثر، وخبر يروى، وعلمٍ يستخرج فى أعماقه نفوس تموج، وعقول تنبض، وهذا الكلام إنما هو إبانة عن موج تلك النفوس، ونبض تلك العقول، فالمنهج الصحيح فى القراءة، لابد أن يجدَّ فى استنباط هذه الدفائن، واستدراجها من مكامنها، وفض أغلاق مصونها، وهذا هو التذوق، والسبيل إليه، الأناة، والصبر، واستقصاء الجهد فى التثبت . . .(٢٦) وأول عمل عمله وفق هذا المنهج - كما قال - هو كتاب «المتنبى»(١٩٣٦)(٢٧).

* * *

(٤)

و«المنهج» عند أبى فهر يسبقه «ماقبل المنهج»، وما قبل المنهج هو الأساس

الذى لا يقوم المنهج إلاّ به، لأن «المنهج» كما قال شطران: شطر فى «تناول المادة»، وشطر فى «معالجة التطبيق»، فشطر تناول المادة يشمل جمعها، من حيث تكون، على وجه الاستيعاب، ثم تمحيص ذلك المجموع تمحيصاً دقيقاً، وذلك بتحليله تحليلا دقيقا يفرد« الزائف»، من «الصحيح» من غير غفلة ملهية، ولا هوى مفسد.

وشطر معالجة التطبيق – كما قال – يقتضى ترتيب تلك المادة بعد نفى ما هو زائف، وتمحيص ما هو جيد، مع النظر إلى كل احتمال للهوى أو الخطأ أو التسرع، ثم تحرى موضع لكل حقيقة، يكون أولى بها من غيره، لأن الإساءة فى وضع الحقائق مواضعها، خليق أن يشوه عمود الصورة، قال: وشطر التطبيق، ومعالجة المادة، هو المنهج على الحقيقة، وبه يستقيم المنهج لصاحبه . . .(٢٨)

ورأس الأمر – عنده – فى المنهج، وفيما قبل المنهج هو «النازل» إلى ميدان ما قبل المنهج = أى الباحث أو الدارس الذى يريد أن يكون له منهج؛ وسمى هذا «الأصل الأخلاقى» فى مسألة المنهج. وقال: إن إغفال هذا الأصل يجعل قضية المنهج، وماقبل المنهج، فوضى لا يتبين فيها حق من باطل(٢٩).

قال: والعاصم لهذا النازل إلى ميدان ما قبل المنهج يكون من قِبَل ثلاثة أمور: اللغة، والثقافة، والأهواء.

أما «اللغة» فلابد للدارس من الإحاطة بأسرار اللغة التى يبحث فيما كتب بها: الإحاطة بأسرارِها ظاهرها وباطنها، وعلى مقدار إحاطته باللغة، أو قصور إحاطته يكون مقدار الصواب فيما يكتبه، ومبلغ الإحسان فى المنهج الذى ينهجه(٣٠)

وأمّا «الثقافة» فإنها تعصمه، من حيث هى «معارف» «يُؤْمَنُ بصحّتها» و«يعمل بها» و (يُنْتَمى إليها»، ورأس كل ثقافة عنده الدين بمعناه العام، أو ما كان فى معنى الدين، ومن طريق إيمان الباحث بصحة ثقافته، وعمله بها، وانتمائه إليها، ومن طريق صحة دينه، وشموله لكل ما يكبح جماح النفس، ويحجزها عن الزيغ عن فطرتها السويّة، ونهجها المستقيم = من طريق هذا كله تكون العواصم العاصمة عن العيوب القادحة فى المنهج بشِقّيه(٣١)

وأما «الأهواء» – أهواء النازل إلى ميدان ما قبل المنهج – فهى – عنده–

«الداء المبير والشر المستطير، والفساد الأكبر» ، ولا يسلم منهجٌ، لمن لم يَسْلَمْ من الأهواء فيما يكتب ثم قال: وهذه شروط لا يختلف فى شأنها أحد فى كل ثقافة، وفى كل لغة»(٣٢).

وهو يهدم بما قال هنا عن المنهج، وماقبل المنهج ماقاله الدكتور طه حسين من «أن القاعدة الأساسية في منهج ديكارت هى أن يتجرد الباحث من كل شئ كان يعلمه من قبل، وأن يستقبل بحثه خالى الذهن خلوا تاما مما قيل» ، وقد أورد هذه العبارة، ثم ناقشها فزيفها، وكشف بطلانها، واستحالتها(٣٣)

ومن صحح ما قال عن اللغة، والثقافة، والدين، والأهواء-وهو عندى صحيح - كان ماقاله الدكتور طه حسين عنده باطلا مستحيلا.

هذا هو حديث الشيخ عن المنهج وما قبل المنهج، وعمله هو موافق لما قال عن المنهج، ملتئم معه كل الالتئام.

وهو يرى أن استتمام «المنهج» ، بامتلاك أدواته ، ومداخله - على النحو الذى ذكره فيما تقدم - موجود فى علم الأمة العربية والإسلامية منذ أوليتها، مكتمل فيه على نحو مذهل، محير للعقل، وعنده أن الذى كان عند العرب والمسلمين من هذا لم يكن مثله عند أمة من الأمم التى تقدمتهم فى العلم حتى أمة اليونان، ويكاد يقول: إن أوربا فى ذروة مجدها العلمى، واستطالتها المعرفية الآن دون ما بلغه العرب والمسلمون فى ذروة مجدهم العلمى، وسلطانهم المعرفى(٣٤) ، وهذا مما يقع فى مثله الاختلاف لأنه حكم عام.

* * *

(٥)

وبوادر هذا المنهج الذى تم واستقام للعرب والمسلمين، تلوح - عنده - إشارته الأولى جلية، منذ عهد علماء صحابة النبى(ﷺ) ، ومن حفظت عنه الفتوى منهم، ثم زاد وضوحاً عند علماء التابعين، ثم استعلن استعلانا عند جلة الفقهاء والمحدثين، ثم جاء زمن التأليف فاستفاض المنهج فيما ألّفه العلماء، ودونوه، على توالى القرون إلى القرن الحادى عشر الهجرى، فى ثقافة متكاملة، متماسكة، مع اختلاف عقول علمائها، وأفكارهم، ومناهجهم،

ومذاهبهم(٣٥) .

ولأن «المنهج» لا يستقيم حتى تُستَتَمَّ أدواته من اللغة والثقافة، والدين، والتَحَرز من الأهواء - كما قال - فإن مناهج المستشرقين فيما كتبوه عن علم العرب والمسلمين بلغاتهم، أو بلغتنا، لا استقامة لها عنده، وإن ادعى لها الاستقامة من ادعاها: ترى ذلك فيما كتبه عن «يوسف هل» و «فرانز روزنتال» وغيرهما(٣٦) .

والشيخ -رحمه الله - كان سئ الرأى - إلى الغاية - فيما كتب الاستشراق عن علم العرب والمسلمين، وهذه من قضايا الخلاف، ومن لا يقر للشيخ برأيه فيها كثير.

وله على رأيه موافقون، والفصل فيها صعب لأنها من الأحكام العامة وربما انتزع نفسه انتزاعا، ليعترف لأحد المستشرقين بالفضل بعض اعتراف - على مضض-كما فعل مع «جوته» الشاعر الألمانى(٣٧)

ومن الواضح أنه بنى رأيه فى «الاستشراق» علِى ما كان قاله فى «المنهج» فالمستشرق أعجمىٌ تعلم فى لغته بلغته هو، وطبع بما تعلمٌ، . . . . ثم انتقل إلى علم العرب والمسلمين بآخره، وقضى فى ذلك مدة، لا تكاد تتيح له إحاطةبأسرار اللغة العربية، ظاهرها وباطنها، ولا إحاطة بالثقافة العربية والإسلامية، إلى الحد الذى يبلغ به درجة الإيمان بها، والعمل لها، والانتماء إليها، والثقافة واللغة عنده متداخلتان مترافدتان - ثم هو محروم من «دين هذه الثقافة» - غالبا - وللدين - عنده - السلطان المطلق الخفى، على اللغة، والثقافة. ثم هو - فى الأكثر - تغلبه الأهواء، لا محالة إذا تكلم فى ثقافة، تخالف ثقافته، ودين يباين الدين الذى هو عليه، وبهذا يتوافق قوله فى المنهج، مع قوله فى «الاستشراق»

وخطر المستشرقين - عنده - لم يأت منهم، ولو ترك ما كتبوه حيث كتبوه بلغاتهم، أو بلغتنا ، أو نظر فيه دون أن تقع الفتنة به، لما كان له كبير خطر . وإنما الخطر كل الخطر عنده - جاء ممن استجاب لهم منا، وبلغ فى استجابته درجة الافتتان والأخذ الأعمى، وكان حين استجاب لهمِ، وقبل منهم، لايملك منهجاً فى دراسة العلم والأدب فى لغته، ولم يكن حسن الرأى فى

الماضين من علماء أمته، فيعتقد أن لهم منهجا، فيكلف نفسه عناء البحث عنه، وقعدت به همته عن أن يطلب لنفسه منهجا يعينه على دراسة ما انتهى إليه من الأدب والعلم . .. . بهذه الثلاثة أساء المتابعة، وسقط فى الفتنة، فأساء الحكم(٣٨).

تلك شهادته على تلاميذ الاستشراق، وهى مما خولف فيه من آرائه، ويصعب الفصل المطلق فيها، لأنها من الحكم العام كغيرها.

وقد وصفت منهجه فى هذه الفقرة بما قال هو بلفظ كلامه وبمعناه ولم أتدخل بالحكم إلا قليلا، وسيأتى بعض رأيى فى منهجه فى الفقرة التالية، ومابعدها.

* * *

(٦)

وفى «منهج» أبى فهر ملمح ظاهر لا يخفى، وهو أن كتابته قائمة على «الدفع والتأسيس» معاً. أما «الدفع» فإنه كان شديد التنبه، مفرط الحساسية، إلى درجة تبلغ أحيانا سوء الظن، وترك التماس المعاذير = لكل «عادية» يراها تعدو، أو تريد أن تعدو على الإسلام وعلومه، وعلى العربية وسليقتها، وهما ثغره الذى طال عليه رباطه.

لهذا كثرت «معاركه»، واحتدت «حدته» فى الرد على من خالفه؛ ترى ذلك جليا فى رده على الدكتور لويس عوض، وسلامة موسى فى كتاب «أباطيل وأسمار»، وتراه بدرجة أقل قليلا فى رده على الدكتور طه حسين، وسعيد الأفغانى فى كتاب: «المتنبى» (السفر الثانى)، وفى رده على الدكتور على جواد الطاهر والدكتور منير سلطان فى كتاب: «برنامج طبقات فحول الشعراء». وبدرجة فيها عنف مزج برفق فى رده على الاستاذ يحيى حقى فى كتاب: «نمط صعب ونمط مخيف».

والذى عرفته عن الشيخ – رحمه الله – من جلوسى إليه، وقراءتى له، أنه كان ألْيَن مَسّاً من الماء، مالم يخالف، فإذا خولف كان كالسيل الأتى لايكاد يقوم له شئ كان يعرف ذلك من نفسه، ويصرح بأنه من جملة طبيعته،

التى تغلبه على نفسه، وَوَدَّ لو غلَبَها، فقد أوتىَ - كما قال - ضربا من الحياء ثرثاراً، ينطق لسانه أحيانا بما لا يحب أن يقول، وبما لايدرى كيف جاء!!! وإنه ليقول لمحاورة فى «القوس العذراء» شفيق مترى - وقد ناله ببعض حدته - «كنت خليقا يومئذ أن أقول غير ما قلت»(٣٩)، وقد أشرت إلى هذا فى بعض ما تقدم من الكلام.

وعندى أن هذه «الحدّة» جزءٌ يسير منها فى طبيعته، وأكثرها مما اكتسبته نفسه من «محنة الشعر الجاهلى» محنته مع طه حسين فى الجامعة المصرية، وهى محنة زلزلته زلزلة شديدة كما قال، ثم من محنة «السجن» وينبغى أن تكون أشد وأقسى.

وكنت وما أزال أرى نفسى لا تسكن لحدة الشيخ - رحمه الله - فى نقد مخالفيه، وإن كنت لا أجهل صحة دوافعها عنده، وكلما وقفت على شئ منها قلت: ليته تركه، أوليته تخفف منه . .. . !

ومع هذا فأنا موقنٌ أن معاركه، وما أخرجته من حدة نفسه هى «البوتقة» التى أنضجت فكره، وأطلقت لسانه، وأقامت له منهجه، ولو تركها لبان ذلك نقصانا، فى فكره، وفى لفظه، وفى منهجه. . .!! وهو ليس وحده فى هذا الباب.

لذا صارت أكثر كتبه وليدة «معركة» أو منتهية «بمعركة»، وأكسبته معاركه العلمية طول النفس، والإطالة، والتكرار أحيانا فكتابه «برنامج طبقات فحول الشعراء» بدأ رسالة للرد على الدكتور على جواد الطاهر فى مقاله: «طبقات الشعراء مخطوطا ومطبوعا» ثم طال فصار كتاباً فى (١٧٩) صحيفة . .!!

ورسالته «القوس العذراء» كانت صدى محاورة مع شفيق مترى صاحب دار المعارف ، ثم صارت رسالة فى (٧٢) صحيفة من القطع المتوسط. . .!! وهى فريدة فى بابها.

وكتاب «نمط صعبٌ ونمط مخيف» بدأه ردّاً على أسئلة سألها يحيى حقى حول قصيدة:

إن بالشعب الذى دون سَلْع لقتيلا، دَمُه ما يُطَلُّ

ثم صار كتابا ضَخْماً فى (٤٤٥) صَحيفة . . .!! وهو من أجل ما كتب،

وهو يرى أنه اضطر اضطراراً لهذا التطويل والتكرار لأنه رأى فى التقصير والإيجاز مضرة، فيقول:

«إن التجربة الطويلة علمتنى أن الإيجاز المقتصد، والاختصار المفهم، واللمحة الدالة، لم يعد شئ منها مغنيا، وصارت عواقبها مخوفة، ومغبتها غير مضمونة، حتى عند من يظن أنهم أهلها»(٤٠)

وكل ذلك مغن لمن يُفهم قطعاً، ولكن الخلاف حمله على سوء الظن بمخالفيه.

هذا عن «الدفع» أما عن «التأسيس» فإنه اجتهد فى أن يؤسس فى كل ما قرأه من الكتب، وفيما كتب بيديه - منهجاً لقراءة كتب العلم القديمة، ومنهجا لمدارسة الشعر وتذوقه، وسيأتى الحديث عن بعض هذا ولكن لا يغنى فيه إلا دراسة مفردة لكل كتاب نشره، أو كتبه، وأسس فيه لباب من العلم فى قراءة الكتب، أو فى الكتابة الأدبية، والنقدية.

* * *

(٧)

ومنهج أبى فهر فى «الدفع والتأسيس» فيما كتب من العلم يشبه عندى منهج أبى محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (٢١٣ - ٣٧٦ هـ) فى كتبه «أدب الكاتب» و «تأويل مختلف الحديث» و«تأويل مشكل القرآن» . . . فكلا الرجلين جاءا فى مفصلين متشابهين من مفاصل تاريخ العلم عند العرب والمسلمين.

جاء ابن قتيبة فى صلب القرن الثالث الهجرى ، وكانت علوم (أهل الخلاف) من الفلاسفة، والمناطقة، والزنادقة، وبعض أهل الكلام والنحل = قد شقت لنفسها طريقا إلى الثقافة العربية والإسلامية، بدأ بطيئا، خافيا قبل هذا القرن، ثم أعلن عن نفسه فى القرن الثالث، وماتلاه، وقصد قصد الإسلام، وعلومه، واللغة العربية وسليقتها. فكان من عصور القلق والرجفة العلمية.

ولعصر «القلق والرجفة فى العلم» منهج يخالف منهج عصره «الطمأنينة العلمية»، ففى عصر الطمأنينية العلمية يتجه أكثر العلماء بجهدهم كله، إلى التأسيس فى العلم، وتقل المدافعة كما فعل الخليل بن أحمد وسيبويه وأضرابهما، وفى عصر رجفة العلم وقلقه، تستعلن المدافعة، وتسبق التأسيس، أو تمتزج به كما فعل ابن قتيبة، والجاحظ، وأضرابهما.

وهذا أساس صالح لأن يدرس عليه تاريخ العلم عند المسلمين، وبه يعرف اختلاف مناهج العلماء. . . .

أما عادية «أهل الخلاف» على حديث رسول الله (ﷺ) فقد رأى ابن قتيبة - رحمه الله - أنهم اتجهوا إلى ثلب «أهل الحديث»، وامتهنوهم، وأسهبوا فى ذمهم، ورموهم بحمل الكذب، ورواية المتناقض، فأوقظت بذلك الفتنة، ووقع الاختلاف، وكثرت النحل، وتقطعت العصم، وتعادى المسلمون، وتعلق كل لمذهب بجنس من الحديث، كما قال(٤١) وهذه شهادة منه على عصره.

والذى أنكره ابن قتيبة من أمر هؤلاء، وفزع له - بعد ما رآه - ما يأتى:

١- أنهم «يقولون على الله ما لا يعلمون، ويفتنون الناس بما يأتون، ويبصرون القذى فى عيون الناس ، وعيونهم تطرف على الأجذاع، ويتهمون غيرهم فى النقل، ولا يتهمون آراءهم فى التأويل»(٤٢)

٢- أنهم تأتوا لكتاب الله تعالى، وسنة رسوله (ﷺ) بغير المنهج الذى يتأتى به إليهما، واعتسفوا لذلك منهجا «مجتلباً» وظنوا أنهم يدركون لطائف القرآن والحديث وغرائبهما «بالطفرة» و «التولد»، و«الجوهر» و «العرض»، و«الكيفية»، و«الكمية»، و«الأينية»(٤٣)

٣- ولم يردوا مشكل العلم فى الكتاب، والسنة إلى أهله، وأخذوه عمن لا يحسنه، ولو ردوه إلى أهله، لاتضح لهم المنهج، واتسع المخرج(٤٤).

٤- ولم يكن قصدهم فيما فعلوا تحرى الحق، والالتزام به متى لزمهم، وإنما طلب الرياسة، وحب الظهور، وكثرة الاتباع.(٤٥)

٥- ولم يكن اختلافهم، وخلافهم فى «السنن والفروع» فيتسع لهم

العذر، ولكنهم قصدوا قصد «الأصول»: قصدَ التوحيد، وما بنى عليه، وما أدى إليه.(٤٦).

٦- وكانوا يقولون: من لزمته الحجة وجب أن ينتقل عن اعتقاده إلى الذى ألزمته الحجة الإنتقال إليه، ثم تلزمهم الحجة فلا ينتقلون!!، وقد قال: إنه ذكر ذلك لأحدهم، فقال له: لو فعلنا لانتقلنا فى كل يوم مرات!! قال ابن قتيبة: وإذا كان الحق يعرف عندك بالحجة والقياس، وكنت لاتنقاد لهما إذا ألزماك، فما تفعل بهما؟!!(٤٧)

٧- وقد فسّروا القرآن أعجب تفسير، وأولوه على مقتضى نحلهم، وفعلوا مع حديث رسول الله (ﷺ) مثل ذلك، فزعموا أن فيه ما هو متناقض، وفيه ما هو مخالف لكتاب الله تعالى، وفيه ما يدفعه النظر، وحجة العقل . . .(٤٨) وهذا الذى كره من أمرهم بلا شك عادية شرسة، وهجمة خطرة على الأصليين: الكتاب، والسنة، ومثله يدفع، ويفزع له.

ويذكر ابن قتيبة: أنه رأى منهم، وسمع، ولم ينقل أمرهم إليه ناقل، أو يحكيه حاك؛ قال: «وكنت فى عنفوان الشباب، وتطلب الآداب ، أحب أن أتعلق من كل علم بسبب، وأن أضرب فيه بسهم، فربما حضرت بعض مجالسهم، وأنا مغتر بهم، طامع أن أصدر عنه بفائدة، أو كلمة تدل على خير،أو تهدى لرشد، فأرى من جرأتهم على الله تبارك وتعالى، وقلة توقيهم، وحملهم أنفسهم على العظائم - لطرد القياس، أولئلا يقع انقطاع- ما أرجع معه خاسراً نادماً»(٤٩)

هذا ما رآه قد أسرع منهم إلى «علم الكتاب والسنة»، ولم يكن الذى رآه يسرع إلى «علم اللغة والأدب» ببعيد منه، ولا مختلف عنه.

فقد وجه أكثر أهل زمانه - كما قال - ناكبين عن سبيل الأدب، متطيّرين من اسمه ، هاجرين لأهْله(٥٠)، فالناشئ راغبٌ عن التعلم، والشادي تارك للازدياد، والمتأدب ناس، أو متَنَاسٍ(٥١). فصار أبعدَ غايات الكاتب حسن الخط، وتقويمَ الحروف، وأعلى مراتب الأديب أن يقول: أبياتا فى مدح قينة، أو وصف كأس!!(٥٢)، وصارهمُّ اللطيف الفكر أن يطالع فى تقويم الكواكب،

وينظر فى حد المنطق، ثم يطعن فى الكتاب والسنة بلاعلم!! (٥٣) من بعد ما ثقل عليهم النظر فى علم الكتاب، وفى أخبار الرسول (ﷺ) وفى علوم العرب، ولغاتها، وآدابها!!(٥٤)

وتركوا علمهم التليد إلى «علم حادث» ليس من علم المسلمين، له ترجمة بلا معنى، واسم بلا جسم!!(٥٥)، وهوّلوا بذكر الكيان، والكيفية، والكمية، والزمان، والدليل، وظنوا أن من وراء هذا الفائدة، كلُّ الفائدة!!(٥٦)

وهم فى ذهول عن علم أمتهم، مفتونون بعلم حادث نقلوه،: «ولو أن مؤلف حد المنطق بلغ زماننا هذا ليسمع دقائق الكلام فى الدين والفقه، والفرائض، والنحو لعدّ نفسه من البكم أو يسمع كلام رسول الله (ﷺ) ، وصحابته، لأيقن أن للعرب الحكمة، وفصل الخطاب»(٥٧).

وهذه شهادة من «ابن قتيبة» على ثقافة عصرهِ تتجلىّ بادية الفزع، وكذلك كانت شهادة أبى فهر على ثقافة عصره الغالبة ، وابن قتيبة يقول: إنه عاين، ورأى، وسمع، وأحسّ فأخبر بما عاين، وما رأى، وما سمع، وما أحسّ وكذلك يقول أبو فهر، ومن رجع إلى ماكُتِبَ الرجلان فى هذا الباب وجد الشبه واضحاً، ولهذا قلت: إن أحد الرجلين يُذَكِّر بصاحبه على تباعد ما بينهما من القرون.

فالعاديتان: القديمة، والحديثة عمدتا إلى الأصول وتسلّمَتَا بالجرأة، فأيقظتا الفتنة، وأوقعتا الإختلاف، وداؤهما واحد: الغفلة عن علم كائن مستقر، والفتنةُ بعلم طارئ مجتلب، والطعن فى الأصول والثوابت، والاحتكام إلى منهج غريب . . . .

قام بهذا فى زمن ابن قتيبة : فى القرن الثالث الهجرى «أهل الخلاف» ومن تعلق بمذاهبهم، وقام به فى زمن محمود شاكر: فى القرن الرابع عشر الهجرى (أهلِ الاستشراق) ومن تعلق بمذاهبهم، الأولون تحصنوا حول «طرد القياس»، ومخافة «وقوع الانقطاع »، وهولوا بالطفرة، والتولد، والجوهر، والعرض، والآخرون تحصنوا حول «المنهج العلمى» و «علم التحقيق» وهولوا بالجديد والتجديد، والحديث والتحديث . . . ، فأشبهت الليلة البارحة.

ولهذا تشابه منهج الرجلين لما تشابهت الدواعى، وقام منهجهما معا على الدفع والتأسيس، وتجلى فيه «الحدة» و«التشاؤم» جميعا. لقد أفزع أحد الرجلين مثل ما أفزع صاحبه، واجتهدا فى دفعه ما أطاقا. . . .

* * *

(٨)

و «تأسيس» أبى فهر لمنهجه فيما نشر من كتب القدماء، أوضح مثال له كتاب «طبقات فحول الشعراء» لمحمد بن سلام الجمحى. نشر الكتاب أول مرة سنة ١٩٥٢م، وأعاد نشره سنة ١٩٧٤م، وكشف عن «عمله» و «نهجه» فيه سنة ١٩٨٠ بكتاب «برنامج طبقات فحول الشعراء» حين خولف فى عمله ونهجه، و«الطبقات» و«البرنامج» حريان بدراسة مفردة تبين جملة منهج الشيخ، وحقيقة عمله وتفصلَ فى قضايا الخلاف التى نشبت حول الكتاب، ويضيق هذا المقام عن ذلك، فأشير إلى طرف منه وهذا حسبى:

هو يسمى عمله فى نشر كتب العلماء «قراءة» و «شرحاً» و«تعليق حواش»، ولا يسميه «تحقيقا» كما يفعل غيره ولا يحب أن يسمى عمله بذلك وهذا أول ما فى منهجه من المفارقة لغيره.

وأذكر أنا كنا سألناه مرّة. لمَ لا يُسَمِّي عمله فى نشر الكتب «تحقيقا» مع ما فى عمله من الجهد المحقق لَلمسائل؟ فقال مامعناه: إن «التحقيق» الجدير باسمه، أمرٌ يكاد يكون لاقبل لأحد به الآن لانعدام الرواية، وضياع أكثر العلم، وقال: إننا نقرأ الكتاب فقط قراءة صحيحة، أوقريبة من الصحة، على الوجه الذى كتب عليه، أو قريبا منه.

وهذا المعنى بعينه كتبه فى الرد على الدكتور: على جواد الطاهر والدكتور: منير سلطان، ومن قال بقولهما: قال: إنه نبذ ما يسميه الناس «المنهج العلمى» أو «منهج تحقيق التراث» ونهج منهجا آخر، يخالف هذا كل المخالفة، فى جذوره، وفروعه، منهجا يقتصر فيه على «قرأ» بدل «حقق»، ويقوم جهده فيه على محاولة قراءة الكتاب قراءة صحيحة، وأدائه إلى الناس بهذه القراءة الصحيحة، وكل ماله فيه من التعليق، إنما هو شرح الغامض ودلالة القارئ، بما يعينه على فهم الكلام، والاطمئنان إلى صحة قراءته، وصحة معناه، فهو قارئ،

أو شارح، أو دليل لاغير(٥٨).

وهو ليس حسن الرأى فيما يعرف «بالمنهج العلمى فى نشر الكتب»، أو «علم التحقيق» «فليس إلا دروساً، أنشأها جماعة من أغتام الأعاجم فى زماننا، فتلقفوها - أى تلاميذهم - عنهم حفظا عن ظهر قلب، فإذا جاء أحدهم كتاب، أو وقع فى يده، نظر، فإذا كانت القواعد المحفوظة مطبقة فى هوامش الكتاب فذاك الكتاب، ذاك الكتاب المحقق، فإذا لم ير أثرا ظاهراً فى هوامش الكتاب، يطابق المحفوظ من القواعد، فهو كتاب غير محقق، كتاب ردئ جدا»(٥٩).

وقال فى موضع آخر مستخفا بذلك المنهج: إنما المحقق من يقول: فى «د»: قال، وفى نسخة «ع»: تال، وفى نسخة «م»: قال: وهلم جرًا(٦٠). يعنى من غير أن يكون من وراء ذكر الاختلاف فى النسخ فائدة علم.

وهو حين نشر كتاب ابن سلام، أقدم إقداماً جسَوراً على شئ لم يفعله أحد من معاصريه، = رأى سقطا وانقطاعا فى متن مخطوطتى الكتاب بيديه: النسخة الأصلية، ونسخة المدينة المنورة، ورمزها عنده «م»، فعمد إلى كتابى الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى، والموشح للمرزبانى، فأخذ منهما أخباراً، ووضعها فى متن كتاب ابن سلام، وقال: هذا موضعها، أو ينبغى أن يكون موضعها، ولأنه أقدم فى هذا على ما لم يقدم عليه غيره، فقد كثر فيه مخالفوه ...

وقد حدد مقدار هذه الزيادة فقال: إنها «تسعة وعشرون» خبرا زادها على أصل الطبقات فى نسخة المدينة(م)، و«عشرة» أخبار زادها على المخطوطة الأصلية، فيكون مجموع مازيد «تسعة وثلاثون» خبراً، ومقدارها من الكتاب ملزمة واحدة(٦١).

وهو لم يزدها إلا بعد دراسة موسعة مجهدة لأسانيد الكتب الثلاثة، رجحت عنده أن الأخبار التى نقلها هى من كلام ابن سلام: من نسخة من كتابة، أو نقلا منها إلى كتاب آخر، رواية عن أبى خليفة: راوى الطبقات عن ابن سلام، وهذا يجعلها عنده بمثابة نسخة ناقصة، أو مختصرة من كتاب ابن سلام (٦٢) ويسقط اعتراض من اعترض عليه فى زيادتها.

والحق أنه اجتهد اجتهاداً مضنيا فى ذلك، قوّى عنده أنه وضع هذه الأخبار، مواضعها التى كانت فيها من نسيج كتاب ابن سلام، أو قريبا من مواضعها . . .

وقد أفاض فى بيان عمله فى الكتاب فقال: «وقد ضمنت هذا البرنامج، ما يشكف حقيقة منهجى فى دراسة الكتب العربية، مطبقا تطبيقا صحيحا، فى الكتاب الذى قرأته، وشرحته، ونشرته، وهو كتاب أبى عبد الله محمد بن سلام الجمحي: «طبقات فحول الشعراء»، ولأول مرة فسرت حقيقة عملى فى : «دراسة أسانيد الكتب الأدبية، كالأغانى لأبى الفرج الأصفهانى، وكالموشح لأبى عبيد الله محمد بن عمران المرزباني ، وهو أساس لكل دراسة لكتبنا الأدبية، التى سارت على النهج الصحيح، فى إسناد الأخبار والآثار، والأشعار.(٦٣).

وهذا منهج فذ – كما ترى – فيه إقدام غير مسبوق، وجسارة ظاهرة، فقد اقتضته طريقته فى «القراءة»، ومنهجه فى «التذوق» بمعناه العام أن يتجاوز مألوف «منهج التحقيق»، الذى يلْزم ما على الوق، ولا يتجاوزه، ويؤديه على الوجه الذى هو عليه، وإن كان ناقصا أو مختلاً، إلى منهج شجاع فِى القراءة، يتجاوز ما فى الورق إن كان ناقصا، فيتممه على الوجه الذى يرجح أنه كان صنيع مؤلف الكتاب، أو قريبا منه ثم عدت عليه المفاسد.

ولأنه منهج فذ جسور، فيه إقدام غير مسبوق فقد وُجدَ المخالف له . . . .، لا بل كثر المخالف له، – كما قلت (راجع البرنامج . . .)

* * *

(٩)

و«منهجه» فى مدارسة القصيدة العربية، وتذوقها، ونقدها يظهر جليا، وعلى أتم ما يكون، فى دراسته لقصيدة:

إِنَّ بالشِّعْبِ الذِى دُونَ سَلْعٍ لَقَتِيلاً دَمُهُ مَا يُطَلُّ

وأول أبواب «المنهج» عنده بحث «نسبة القصيدة» حين يكون فى نسبتها لشاعر بعينه خلاف. وقد جمع فى نسبة تلك القصيدة «اثنى عشر» قولا، هذا

بيانها، من كلامه:

١- من «جَرَّدَ» نسبتها إلى «تأبط شرًا»: أبو تمام (١٨٨-٢٣١هـ أوقبلها)، وتبعه الجوهرى (.... - ٣٩٣هـ)

٢- من «ردَّد» نسبيتها إلى «تأبط شرًا» على وجه الإيهام: الجاحظ (١٥٠ - ٢٥٥ هـ)

٣- من «ردد» نسبتها إلى «تأبط شرًا» أو إلى «غيره» مصرحا باسمه: ابن دريد (.... - ٣٢١ هـ)، وأبو عبيد البكرى (.... ٤٨٧ هـ)

٤- من نسبها إلى «ابن أخت» تأبط شراً بلا بيان عن اسمه : الجاحظ فى إحدى نسخ الحيوان، وابن عبد ربه (٢٤٦ - ٣٢٧ هـ) فى العقد، وأبو عبيد البكرى فى معجم ما استعجم، والتبريزى (٤٢١ - ٥٠٢هـ) فى شرح الحماسة.

٥- من نسبها إلى «ابن أخت» تأبط شرًا، وزعم أنه الهجال بن امرئ القيس الباهلى، وهو أقدم العلماء جميعا ابن هشام (.... - ٢١٨ هـ) فى كتاب التيجان.

٦- من نسبها إلى «ابن اخت» تأبط شرًا ، وزعم أنه خفاف بن نضلة : أبو عبيد البكرى.

٧- من نسبها إلى «ابن اخت» تأبط شرًا وزعم أنه «الشنفرى»: ابن دريد، وابن برّي (٤٩٩ - ٥٨٢هـ)، والبغدادى (١٠٣٠ - ١٠٩٣هـ).

٨- من «جرَّدَ» نسبتها إلى «الشنفرى» أبو الفرج فى الأغانى.

٩- من «ردَّدَ» نسبتها إلى الشنفرى أو إلى غيره (خلف الأحمر): وهو ابن دريد، وأبو عبيد البكرى.

١٠- من نسبها إلى «العدوانى» : ابن دريد

١١- من نسبها إلى «خلف الأحمر» وزعم أنه نحلها «ابن اخت» تأبط شرًا، : أقدمهم ابن قتيبة (٢١٣ - ٢٧٦هـ) فى الشعر والشعراء، وابن عبد ربه: فى العقد، والقفطى (٥٦٨ - ٦٤٦ هـ): فى إنباه الرواة، والمرزوقى(.... -

٤٢١ هـ)، والتبريزى: فى شريحهما على الحماسة.

١٢- من «ردد» نسبتها إلى «خلف الأحمر»: ابن دريد، وابن عبد ربه، والبكرى (٦٤).

ثم قال بعقب هذا السرْد: فلهذه القصيدة نسبتان: أولاهما تجعلها جاهلية خالصة (١ - ١٠)، والأخرى تجعلها إسلامية خالصة، صنعها خلف الأحمر، ثم نسبها إلى جاهلى (١١، ١٢)، ثم ناقش الأقوال فضعفها إلا واحداً، وقال: «لم يبق بعد ذلك إلا نسبتها إلى مجهول هو ابن اخت تأبط شراً، يرثى خاله تأبط شرا الفهمى، وكانت هذيل قتلته»(٦٥)

هذا صنيعه - من كلامه - فى بيان من تكلم فى نسبة هذه القصيدة وفى سرد هذه الآراء، وترتيبها، وتقسيمها جهد جهيد، لا يخفى على من أنصف، ثم إنه قال بعقب ذلك: «ولكنى لا أقطع بأن الذى وصلت إليه هو الغاية، وعسى أن تجدَّ غدا نصوص أخرى تزيدنى ثقة بما رجحته، أو تردنى إلى حق أخطانى»(٦٦).

وقد كان. فإنّه وجد نصا لدعبل بن على الخزاعى (١٤٨ - ٢٤٦ هـ) نقله عنه ابن المعتز فى كتابه: طبقات الشعراء (٦٧) فوجد ما ردّه إلى حقّ أخطأه، فعاد فى ترتيبه السابق، ووضع دعبل بن على بين ابن هشام والجاحظ، فى ترتيب أصحاب الآراء، فى نسبة القصيدة.

وكان قد قال فى تعليقه على الآراء: «وأقدم من نسبها إلى مجهول هو ابن اخت تأبط شراً: هو ابن عبد ربه الأندلسى (٢٤٦ - ٣٢٧ هـ)(٦٧)، وقال أيضا: «من نسبها إلى خلف الأحمر» وزعم أنه نحلها «ابن أخت تأبط شراً»: أقدمهم ابن قتيبة فى الشعر والشعراء . . .»(٦٨)

وقد اعتمد الشيخ - رحمه الله - فى هذا على نص كلام ابن قتيبة فى الشعر والشعراء، قال: «وهو - أى خلف الأحمر - القائل:

إن بالشعب الذى جنْبِ سلع لقتيــــلا، دمه ما يُطَلّ

ونحله ابنَ اخت تأبط شراً(٦٩)

ولكنى وجدت فى الصفحة الأخيرة من كتاب ابن قتيبة: «تأويل مختلف

الحديث» : – وهو يشرح قول العرب فلان لا ينقطع حتى تنقطع خصومه، يريدون أنه لا ينقطع إذا انقطعوا=ما نصه:

«وقد جاء مثل هذا بعينه فى الشعر المنسوب إلى «ابن اخت» تأبط شرّاً، وقيل – فى الأصل وقال وهو تصحيف ظاهر على مارجحت – إنه لخلف الأحمر:

صَلِيَتْ مِنِّـى هُذَيْلٌ بخـرْقٍ
لا يَمَلُّ الشرّ حتى يَملُّوا»(٧٠)

فإن صحّ نص ابن قتيبة فى «تأويل مختلف الحديث» على الوجه الذى قرأته عليه،[1] كان له فيه رأى يخالف رأيه فى نص كلامه فى الشعر والشعراء. ويكون فى نص «التأويل» ممن ردد نسبة القصيدة بين ابن اخت تأبط شرّاً – ودون أن يسمه» – وبين خلف الأحمر . ولم استطع معرفة أى كتابيه: «الشعر والشعراء» ، و«تأويل مختلف الحديث» ألف آخراً، فيكون قوله فيه آخر رأييه فيكون أصحهما عنده.

وحينئذ يكون أقدم من نسبها إلى مجهول هو «ابن أخت تأبط شرّاً » هو ابن قتيبة (٢١٣ – ٢٧٦ هـ) ، لا ابن عبد ربه الأندلسى (٢٤٦ – ٣٢٧هـ) ، كما قال الشيخ: ولا يكون ابن قتيبة – فى هذا النص – أقدم من نسبها إلى خلف الأحمر وزعم أنه نحلها ابن أخت تأبط شرّاً . . . . لأنه ممن رد النسبة فيه كما رأيت.

وهذا الباب من أبواب منهج مدارسة القصيدة العربية، وتذوقها ونقدها = باب وعر، عسير، وليس مأخوذا بحقه فى أكثر دراسات القصيدة العربية حين يكون فى نسبتها اختلاف.

والباب الثاني، من أبواب منهجه فى مدارسة القصيدة . . . . «رواية القصيدة» ، قال: ولابد فى هذا من تحرى أمور أربعة:

١– استقصاء المصادر التى روت القصيدة تامة.، أو أوردت قدراً صالحاً

(١) قلت هذا أولا، ثم وجدت النص في طبعة الكتاب التي صححها وضبطها محمد زهري النجار هكذا «.. .وقد جاء مثل هذا بعينه في الشعر المنسوب إلي ابن أخت تأبط شرا، ويقال:إنه لخلف الأحمر: ...الخ»: ص ٣٥٠ ،هي طبعة موثقة مقابلة علي ثلاث نسخ عتيقة.

منها، مع التزام الترتيب التاريخي.

٢- اختلاف عدد الأبيات فى كل رواية.

٣-اختلاف ترتيب الأبيات، فى روايات الرواة.

٤- استقصاء كل اختلاف، واقع فى الألفاظ، فى تلك الروايات وقد فعل هذا فى قصيدة: (إن بالشعب الذى دون سلع . . .)(٧١).

وقد قال: إن الشعر من بين أنواع البيان، هو الأشق علاجاً والأعصى قياداً، لأن الشعراء لا يبينون عن معانيهم إبانة مغسولة، بل يركبون أغمض ما فى البيان الإنسانى من المذاهب وربما «شعث» الشاعر ماحقه أن يجتمع، لأنه لايبلغ حق الشعر إلا بهذا التشعيث، واعتمد سياقة يوهم ظاهرها أن القصيدة مختلة، وما هى بمختلة، فإذا عمد الناظر فى قصيدته إلى إعادة ترتيبها على غير مقتضى التشعيث، أفسد بعمله ما تعب فيه الشاعر، بميزان وتقدير.(٧٢)

قال: وإدراك ما اختل من ترتيب القصيدة متوهماً، أو متوقعا ممكن - على صعوبته - لمن «تنسم معانى الشعر»، «أما البعيد الصعب فهو تسديد ما اختل، وتثقيف مازاغ، لأن الأمر عندئذ يتعدى حد تنسم معانى الشعر، إلى مثل قدرة الشاعر على بناء قصيده وشعره، وإلى مثل مكره واحتياله، فى الإبانة عن أقصى ما غمض فى نفسه، باللفظ بعد اللفظ، وبتركيب الألفاظ، بناءً واحداً، تلقفه النفوس بالتذوق . . . .(٧٣)

وهذا الذى ذكره فى باب رواية القصيدة يهجم بالدارس على «بناء القصيدة ووحدتها» وعلى «لغة القصيدة»، وهما من معضلات تحليل القصيدة ونقدها، ونظريته فى «تشعيث القصيدة» حرية بدراسة وحدها تجمع أطرافها، وتكشف حقيقة مراده فيها.

ويبقى الباب الثالث من أبواب منهجه فى «مدارسة القصيدة» وهو باب «تحليل القصيدة»، وهو يطال - عنده -«الألفاظ» وما بينها، و«المعانى» المتسربة خلالها، و«سر الشعر» وهو النغم الكامن الذى تتهادى عليه الألفاظ والمعانى، والتراكيب(٧٤).

و «التحليل» - كما قال - من قواعد منهجه فى القراءة، والكتابة لا

يفارقه (٧٥)، وهو من عمل «الناقد» لا «المتذوق»، وفرق - عنه - بين الناقد، والمتذوق : فالناقد «يتولى كشف أسرار الشعر فى تركيبه، وبنائه» والمتذوق من «يملك الأداة التى تتيح له أن يفهم، وأن يتأثر»، ويستوى فى هذا، أو ينبغى أن يستوى فيه الناقد والشاعر، وقارئ الشعر، وسامعه ثم قال: وبين الناقد والمتذوق بون سحيق لا يستهان به(٧٦). والتحليل عنده أن تدرس الشعر بمنهج يتطلب ما سماه «حقيقة الشعر»(٧٧).

ومن التحليل عنده - أن تعمد إلى «الاستدلال» حين يتعذر غيره، فتستدل بالخبر الشاهد على خبر غائب، وربما وافق صوابا، وهو كما قاله باب محفوف «بالعواثير المهلكة، والمتالف المرهوبة»، ومع هذا لولاه لبطل علم كثير(٧٨)

والاستدلال عنده- أساسه «التذوق»، وله فى التذوق ما هو؟ وكيف يكون؟ كلام كثير، خصب، حقه أن يجمع، وينظر فيه على حده(٧٩)، فالتذوق عنده - أساس كل حضارة بالغة، وهى تفقد أسباب بقائها إذا فقدت دقة التذوق. والتذوق قوام كل علم وصناعة، لاقوام الآداب والفنون وحدهما كما يبدو فى الظاهر(٨٠).

والتذوق -فيما يرى- ليس عملا هينا ميسوراً، ممهد السبل، ولا عملا موقوتا بساعته، حتى إذا فرغ منه ذهبت حاجة النفس إليه، بل هو عمل خفى، متشعب، معقد، لا يتعلق بظاهر الألفاظ، والأساليب، والصور، كما هو واقع فى وهم أكثر الناس، بل ينفذ من الألفاظ، والمعانى، والصور، إلى أعمق أعماق المعانى التى تنطوى عليها، وإلى أغمض ما يمكن فى ثناياها من الفكر، والرأى، والنظر، والحجة. إنه عمل يخالط أعماق العقل، ويثير النفس ويهزها هزاً، ويقلبها بتقلب الخواطر، تقلبا لا تكاد تبلغه الصفة . . .(٨١).

وهذا «التحليل التذوقى» - عنده - حرى بأن يفضى بناقد الشعر إلى حقيقة «ألفاظه» و«نغمه» و«عاطفة» الشاعر المستكنة فيه، وإلى مذهب الشاعر فى استخدام «ضمائر» الشعر، و«عطوفاته» و«أزمنة أفعاله» . . . إلخ

وأمر «ألفاظ الشعر» - عنده - مختلف «لأن الشعراء يلبسونها (بالإسباغ)، ويخلعون عنها (بالتعرية) ما يكاد ينقل اللفظ عن مستقره فى

اللغة، وفى كتبها، إلى مدارج تسيل باللفظ، وقرنائه من الألفاظ، إلى غاية، غير غاية المبين عن نفسه لمسامعه . . . .»(٨٢)

وهذا كلامٌ دقيق، متناه، عن «خصوصية اللغة الشعرية، وما للشاعر فى ألفاظه من الزيادة، على مالها فى كتب اللغة.

أما «سر الشعر»، وهو «النغم» فقد قال فى نغم قصيدة: إن بالشعب . . .، كلاماً لا أدعى أنى فهمته كلّه، فتكلم عن «الترفيل» وما يصنعه فى نغم «المديد، وقال :إنه يفشى فى نغم هذا البحر» قلقا وحيرة، وبسطا وقبضاً، تتتابع كلها فى خلاله، داركا، فتشد إليها المتغنى به، المترنم، – وهو الشاعر – وتكبح من غلوائه، كلما أوشك أن يسرع، أو يسترسل، حتى يذعن، ويتئد»(٨٣)، وكان يفسر بهذا مانسب إلى بحر المديد من الثقل، أو الصعوبة والعسر حتى قل استعماله فى شعر الجاهلية والاسلام إلى زماننا هذا(٨٤).

وجمع بين تلك الصفة لنغم المديد، وبين «المعنى» الذى يُرَكَّبُ عليه، فقال: «وعلى ذلك فأوفق حالات المترنم – أى الشاعر – حين يلابس هذا النغم – يقصد نغم المديد كما وصفه – أن يكون، على حال تذكُّر لشئ كان، ثم انقضى»(٨٥)

. . . . . إلى أن قال: «وأجهل الناس، من يظن جمال الأنغام المتسربة من ألفاظ الشعر، وألحانه المركبة – دانية القطوف لكل كاتب أو ناقد، فإن اللغة هى قمة البراعات الإنسانية، وأشرفها وهى أبعد منالا، مما يتصور المرء بأول خاطر، فما ظنك إذا كانت اللغة، لغة شعر، أو كلام بين؟!(٨٦).

وهذا كلام فى «نغم الشعر» وعلاقته بنَفْسِ الشاعر، ومعانيها قل أن تجده عند غيره.

والحالة التى يكون عليها الشاعر حين يتغنى،: أى «عاطفة الشاعر» عنده، ذات أثر ظاهر فى شعر الشاعر وإغفالها يجعل الشعر ميتا، لا حراك به، «فمحال – أن يستغرق الشاعر الصادق فى غنائه، وهو على حالة من الإحساس، ثم لا يكون لهذه الحالة أثر ظاهر فى اختيار لفظه، وفى تركيب كلامه، وفى استخدام خصائص لغته للتعبير، مريدا، أو غير مريد»(٨٧)

وله فى تحليل قصيدة : «إن بالشعب . . . .» كلامٌ عن «الضمائر»، و«العطف»، و«الزمن» لا تغنى الإشارة إليه عن الرجوع اليه، وكلام آخر عالٍ

جداً عن ما سماه «تشعيث الأزمنة»، وبقصد الأزمنة الثلاثة: « زمن الحدث» و «زمن التغنى» و«زمن النفس»، والأخير عنده هو زمن الشعر على الحقيقة(٨٨)

ولا يغنى ماذكرت هنا، عن الرجوع إلى ماكتبه، كما كتبه.

هذا . . . . وجمله منهجه فى مدارسة قصيدة من الشعر، وتذوقها، ونقدها يكاد يجمعه قوله، إن «مدارسة قصيدة من القصائد (وقديم الشعر وحديثه فى ذلك سواء)، تحتاج أول كل شئ إلى تمثل القصيدة جملة، وتمثل أجزائها تفصيلا، تمثلا صحيحاً، أو مقارباً ، بدلالة جمهور ألفاظها، على بنائها، ومعناها، ثم تحتاج إلى تحديد معانى الألفاظ، فى موقعها من الكلام، ثم إلى تخليص ألفاظها وتراكيبها من شوائب الخطأ، التى يتورط فيها الشراح والنقاد، ثم إلى إزالة «الإبهام» الذى مردّه إلى التهاون فى تمييز فروق المعانى، المشتركة بين الشعراء، وإلى الغفلة عن حذق الشعراء فى استخدام «الإسباغ» ، و«التعرية» ، و«التشعيث» فى الألفاظ، والتراكيب . . . »(٨٩)

وبالضد من هذا المنهج - عنده - أن يعاين الناقد سطح القصيدة بلا تعمق ويكتفى بمسّ جثمان ألفاظها بلا خبرة، ويعزل المخبوء فى أنغامها عن ألفاظها ، ومعانيها، وقد ذكر هذا المنهج المعيب، ثم قال: إنه عنه بمنأى، وهو منه برئ(٩٠)

وبعد . . . . فهذه محاولة منى، للاقتراب من «منهج» أبى فهر: محمود محمد شاكر - رحمه الله - فيما قرأ من كتب العلماء قبله، وفيما كتبه بيديه عن تحليل القصيدة العربية وتذوقها ونقدها، وهى - كما سميتها -، مدخل إلى منهجه، لا تتجاوز - إلا قليلا، مداخل أبواب ذلك المنهج. ويبقى كل كتاب كتبه - وكذا كل قضية أثارها - حرِيّاً بدراسة مفردة، تكشف عن جملة منهجه، وتحيط بأطرافه، وتقول فيه بماله، وبما عليه.

والحمد لله أولَ كل قول وآخره ، ومبدأ كل عمل ومنتهاه، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله، وصحبه، كثيرا.

وكتبه أبو حازم

كمال عبد الباقى لاشين

صبيحة السبت ٢٩ من ذى القعدة ١٤١٨هـ

الموافق ٢٨ مارس ١٩٩٨م

الهوامش والمراجع

(١) كان ذلك بين عامى (١٩٧٨- ١٩٨٢)، وقد ذكرت هذا فى مقدمة كتابى: المتنبى فى مصر المطبوع ١٩٩٣م. مطبعة الحسين الإسلامية - الطبعة الأولى.

(٢) نمط صعبٌ ونمط مخيف للأستاذ محمود محمد شاكر مطبعة المدنى بالقاهرة الطبعة الأولى ١٩٩٦ صفحة : ٢٨٣.

(٣) لسان العرب (ورث) عن ابن سيدة

(٤) « « (كسب)

(٥) رددت على الدكتور صلاح فضل فى دعوته إلى «القطيعة المعرفية» بمقال: من الشك إلى القطيعة، نشر فى مجلة صدى الأسبوع الصادرة فى دولة البحرين العددين (١٠٩٩) ١٩ يناير ١٩٩٣، و(١١٠٠) ٢٦ يناير ١٩٩٣م.

(٦) انظر ما قال فى: رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا صفحة: ١٥٨

(٧) برنامج طبقات فحول الشعراء للأستاذ محمود محمد شاكر مطبعة المدنى ١٩٨٠ صفحة : ١١

(٨) نشر مقال الدكتور على جواد الطاهر فى مجلة المورد العراقية، المجلد الثامن، العدد الثالث، الصادر فى خريف ١٣٩٩ هـ، ١٩٧٩م. انظر برنامج طبقات فحول القراء: ١٥.

(٩) المتنبى، مطبعة المدنى، السفر الأول: صفحة : ١٠

(١٠) القوس العذراء للأستاذ محمود محمد شاكر نشر مكتبة الخانجى : صفحة :١٩

(١١) المرجع السابق : ١٨

(١٢-٢٠) المرجع السابق : ٧٥، ١٨، ٢٠، ٢٣، ٢٥، ٢٩.

(٢١) رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا للأستاذ محمود محمد شاكر طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب صفحة : ١٩.

(٢٢) نمط صعب ونمط مخيف: ٣٣٤، ٣٣٩.

(٢٣) رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا: ٧

(٢٤) المرجع السابق : ٨، ١٨

(٢٥) « « ٨، ١٥

(٢٦) « « ١٥، ١٦

(٢٧) « « ١٦

(٢٨) أباطيل وأسمار للأستاذ محمود شاكر: ٢٤ بأكثر ألفاظ الشيخ وقد كرر هذا القول فى رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا : ٢٢ وفى قضية الشعر الجاهلى فى كتاب ابن سلام: ٨

(٢٩) رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا: ٣١

(٣٠) رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا: ٢٧ ، ٦٥.

(٣١) السابق : ٣٠، ٣١.

(٣٢) « ٦٦

(٣٣) فى الشعر الجاهلى للذكتور طه حسين: ١١ نقلا عن رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا : ٣٠

(٣٤) رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا: ٢٤

(٣٥) المرجع السابق : ٢٥

(٣٦) راجع برنامج طبقات فحول الشعراء: ١١٦ ، ١١٩ ، ونمط صعب . . . . . : ٢٩٧.

(٣٧) نمط صعب . . . .: ٣٥.

(٣٨) المرجع السابق : ٢٩٧

(٣٩) راجع القوس العذراء: ١٨

(٤٠) برنامج طبقات فحول الشعراء: ٤٧

(٤١ - ٤٨) تأويل نختلف لابن قتيبة : ١١، ٢٠، ٢١ ، ٦٠، ٦٣، ٦٤ ، ٨٣ ومابعدها، على التوالى.

(٤٩) المرجع السابق: ٦٠

(٥٠-٥٧) شرح أدب الكاتب لابن قتيبة: الشرح لأبى منصور

الجواليقى، مكتبة القدسى سنة ١٣٥٠ هـ. الصفحات: ١٢، ١٥، ٢٥، ٢٨، ٣١، ٣٣، ٣٤، ٤٢. على التوالى.

(٥٨) انظر: برنامج طبقات فحول الشعراء: ١٥٨.

(٥٩) المرجع السابق: ١٢، وعاد إليه مرة أخرى: ١١٦.

(٦٠) نفسه: ١٥٨

(٦١) « : ٣٧

(٦٢) « : ٤٧ ومابعدها

(٦٣) « : ١١

(٦٤) راجع: نمط صعب، ونمط مخيف: ٤٦ - ٦٢.

(٦٥) المرجع السابق: ٥٧

(٦٦) نفسه : ٥١

(٦٧) نفسه : ٥٧

(٦٨) نفسه : ٥٠

(٦٩) الشعر والشعراء لابن قتيبة: تحقيق: أحمد شاكر، دار التراث العربى ط ٣ ١٩٧٧ : ٢/٧٩٤.

(٧٠) تأويل مختلف الحديث: دار الكتب العلمية / بيروت ط ١ ١٩٨٥: ٣٢٥.

(٧١) نمط صعب، ونمط مخيف: ١٢١ ومابعدها

(٧٢) السابق: ١٢٩ ومابعدها

(٧٣) نفسه: ١٣١ ومابعدها تتمة للكلام

(٧٤) نفسه : ١٣١

(٧٥) قصبة الشعراء الجاهلى فى كتاب ابن سلام لمحمود محمد شاكر : ٣٧.

(٧٦) نمط صعب، ونمط مخيف: ١٣٤.

(٧٧) السابق، ٣٥٢.

(٧٨) قضية الشعر الجاهلى . . . .: ٥٨.

(٧٩) راجع: نمط صعب: فهرس المصطلحات الأدبية والنقدية، مصطلح «التذوق» : ٤١٧، وكتاب قضية الشعر الجاهلى: ٥٩ - ٦٣، وغيرها من كتبه.

(٨٠) قضية الشعر الجاهلى . . . .: ٥٨.

(٨١) » » » : ١١٣.

(٨٢) نمط صعب ونمط مخيف: ١٣٣

(٨٣، ٨٤) نمط صعب ونمط مخيف : ١١٠ -١١٢ ومابعدها.

(٨٥) نمط صعب ونمط مخيف: ١١٤.

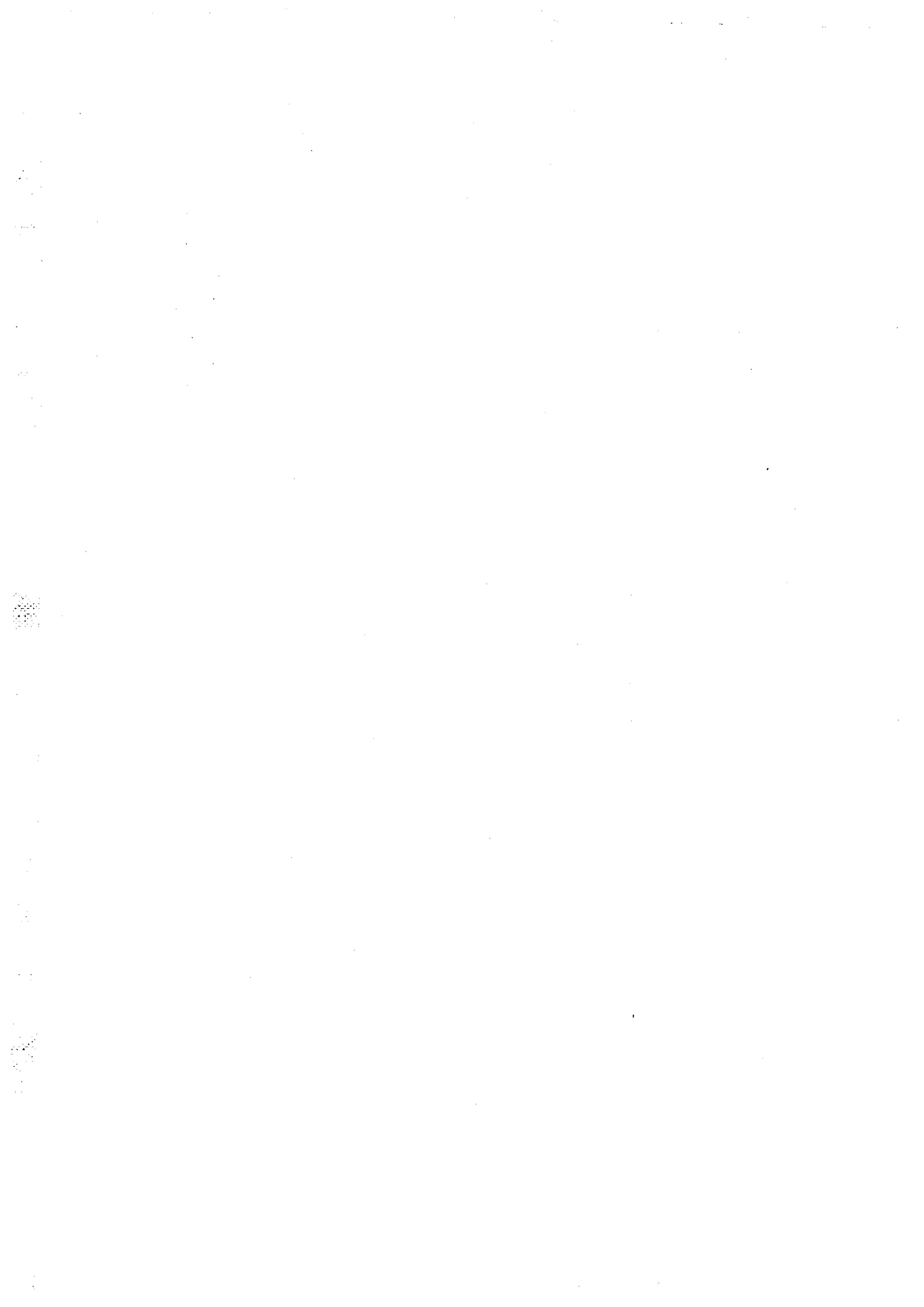
(٨٦) » » » » : ١٦٩.

(٨٧) » » » » ٢٢٣:

(٨٨) » » » » ٢٣٧.

(٨٩) » » » » ٢٠٣

(٩٠) » » » » ٣٤٧



محمود محمد شاكر
ومنهجه في تحقيق التراث

بقلم د. محمود محمد الطناحى
كلية الآداب - جامعة حلوان

الحمد لله وحده لا شريك له. والصلاة والسلام على المصطفى من خلقه، سيدنا ومولانا محمد بن عبد الله، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى أبويه الكريمين: إبراهيم واسماعيل، وعلى سائر إخوانه رسل الله، ثم على آله الطيبين الطاهرين وصحابته أجمعين، وارحم اللهم آباءنا وأمهاتنا ومشايخنا وأستاذينا وأستاذ أستاذينا، وكل من له حق علينا، ويرحم الله عبداً قال آمينا.

ثم أمّا بعد:

فأحسب أن روح أبى فهر ترفرف حولنا الآن جَذْلَى نَشْوى، فلو سئل أبو فهر - رضى الله عنه - عن أحبّ الأماكن إليه لتأبينه وتكريمه، لقال: الأزهر، وذلك لكرامته عليه وجلالته عنده، فمن خلال صحبتى الطويلة لشيخى أبى فهر، كنت إراه معظما للأزهر، موقّرا لشيوخه، حافظا لتاريخه، ولم يكن يسمح لأحد فى مجلسه أن يتطاول على الأزهر أو ينال منه.

وإذا كان الشيخ رحمه الله محبّاً للأزهر كله، فقد فازت كلية اللغة العربية عنده من هذا الحب بأوفر الحظ والنصيب، فقد كثرت صداقاته للمنتسبين إلى هذه الكلية قديما وحديثا، فمن صداقاته القديمة الشيخ محمد نور الحسن، ذلك العالم السودانى الكبير، الذى كام مدرسا بقسم التخصص بالكلية، وكذلك الشيخ العَلَم محمد مِحيِي الدين عبد الحميد، وبينهما مداخلة عائلية، وكان أبو فهر يجلّه كثيرا، وقد قدّم له بعض تحقيقاته، وكذلك قدّم تقدمة عالية لكتاب الشيخ محمد عبد الخالق عضيمة «دراسات لأسلوب القرآن الكريم» بل إن أبا فهر رضى الله عنه رثى شابا معيداً بالكلية، كان مرجوّاً لخير كثير، هو الأستاذ رجب إبراهيم الشحات، رثاه فى مقدمة جزء من تهذيب الآثار للطبرى، مرثية خاشعة، وكأنه يرثى شيخه مصطفى صادق الرافعى، أو رفيقيه: محمود حسن إسماعيل ويحيى حقى، قال فى تلك المرثية:

«كان رحمه الله شابا نبيل النفس، عفيف اللسان، عزيز الجانب، خفيض الصوت، ليّن العريكة عالى الهمة، رضىّ الخلق، محباً للعلم وأهله، قليل التلفّت لما لا يعنيه، خبرته سنوات، فلم أقف منه على ذلّة، فكان عندى كبعض أهل بيتى، أحببته لورعه وخشيته لربّه، وخشوعه فى صلاته، ثم لما أجده فيه من الصبر على طلب العلم، وجدّه فى متابعة التحّرى للصواب، ومدافعته عن لغته ودينه، لا يبتغى فيما أعلم إلاّ وجه الله، رحمه الله رحمة واسعة، وجزاه أحسن الجزاء بإخلاص نيته، ولقد فقدت بفقده أخا وصديقا وصاحبا، فى زمانٍ قلّ فيه الأخ والصديق والصاحب» تهذيب الآثار للطبرى، مسند عمر بن الخطاب - السفر الأول ص ١٥.

ومن وراء ذلك كله فقد وسع مجلس شيخنا لنفر كريم من أعضاء هيئة التدريس بالكلية، أحبّهم وقرّبهم، وقدّموا له كتبهم، فقرأها وأثنى عليها، ومنهم الأساتذة: محمد أبو موسى ومحمد البنا والسعيد عبادة وجودة مصطفى ومحمد أبو سعدة وعبد الشافى عبد اللطيف والنبوى شعلان وحامد الخطيب، أطال الله فى النعمة بقاءهم جميعا، فكان حقا وواجبا على كلية اللغة العربية أن تقوم بواجبها نحو شيخ العربية وحارسها ومحبّها، رحمه الله.

ويبقى شىء خاص من الذكرى الطيبة لهذه الكلية المباركة: لقد كنت طالبا بمعهد القاهرة الدينى، وكنت أمرّ بكلية اللغة العربية فى الغداة والعشىّ، فتتخطفنى مشاعر من الجلال والهيبة، وحين قدّر الله وقضى أن أذهب أنا ونفر من أبناء جيلى إلى الجانب الغربىّ (دار العلوم) لم ننكر أزهريّتنا ولم نخلع عمائمنا، بل ظلت مستقرة فى القلوب، مستترة فى الضمائر، يمنع من ظهورها التعذّر، ولا يمنع من ظهورها الثقل.

* * *

تحقيق النصوص علم له قوانينه وأعرافه ومصطلحاته وأدواته، وله جانبان: جانب الصنعة وجانب العلم، فأما جانب الصنعة فهو ما يتصل بجمع النُّسخ المخطوطة للكتاب المراد تحقيقه، والموازنة بينها، واختيار النسخة الأمّ، ثم ما يكون بعد ذلك من توثيق عنوان المخطوط واسم المؤلف ونسبة المخطوط إليه، ونسخه والتعليق عليه، وتخريج شواهده وتوثيق نقوله، وصنع الفهارس الفنية اللازمة، فهذا كله جانب الصنعة الذى يستوى فيه الناس جميعا، ولا يكاد يفضل أحد

أحدًا فيه إلاّ بما يكون من الوفاء بهذه النقاط أو التقصير فيها.

وأما جانب العلم فى تحقيق النصوص فهو الغاية التى ليس وراءها غاية، وهو المطلب الكبير الذى ينبغى أن تصرف إليه الهمم، وتُبذل فيه الجهود، ولاءً لهذا التراث العريق، وكشفا لمسيرتنا الفكرية خلال هذه الأزمان المتطاولة. وعدّة المحقق فى ذلك هى معرفة الكتب العربية فى كلّ فن، وحسن التعامل معها والإفادة منها؛ لأنه فى كلّ خطوة يخطوها مطالب بتوثيق كلّ النقل وتحرير كلّ قضية، بل إن المحقق الجادّ قد يبذل جهدا مضنياً لا يظهر فى حاشية أو تعليق، وذلك حين يريد الاطمئنان إلى سلامة النص واتّساقه.

وقد مرّ تاريخ نشر التراث فى ديارنا المصرية بأربع مراحل: المرحلة الأولى: مطبعة بولاق والمطابع الأهلية، ومرحلة الناشرين النابهين، ومرحلة دار الكتب المصرية، ومرحلة الأفذاذ من الرجال.

وفى المرحلة الأولى نشرت النصوص التراثية خالية من دراسة الكتاب وترجمة مؤلفه وذكر مخطوطاته، وفهرسته، وإن كان النشر فى هذه المرحلة قد اتسم بالدقة المتناهية والتحرير الكامل، إذ كان يقوم على التصحيح فئة من أهل العلم، منهم الشيخ نصر الهوديني، والشيخ محمد قطة العدوى. والمرحلة الثانية عنيت إلى حدّ مّا بجمع النسخ المخطوطة للكتاب، وذكر ترجمة المؤلف، وبعض الفهارس، وتعرف هذه المرحلة بتلك الأسماء: أمين الخانجى، ومحب الدين الخطيب، ومحمد منير الدمشقى، وحسام الدين القدسى، وكلهم من أهل الشام، والمرحلة الثالثة: هى مرحلة دار الكتب المصرية، وفى هذه المرحلة أخذ نشر التراث يتجه إلى النضج والكمال من حيث جمع نسخ الكتاب المخطوطة من مكتبات العالم، وإضاءة النصوص ببعض التعليقات والشروح، وصنع الفهارس التحليلة، وما يسبق ذلك كله من التقديم للكتاب وبيان مكانه فى المكتبة العربية، وقد تأثر هذا المنهج إلى حَدٍّ مَا بمناهج المستشرقين الذين نشطوا فى نشر تراثنا وإذاعته منذ القرن الثامن عشر، وقد وقف على رأس هذه المرحلة أحمد زكى باشا شيخ العروبة.

أما مرحلة الأفذاذ من الرجال فهى مرحلة: أحمد محمد شاكر ومحمود محمد شاكر وعبد السلام هارون، والسيد أحمد صقر، وقد دخل هؤلاء الأعلام ميدان التحقيق والنشر مزوّدين بزاد قوى من علم الأوائل وتجاربهم، ومدفوعين

بروح عربية إسلامية عارمة، استهدفت إذاعة النصوص الدالّة على عظمة التراث الكاشفة عن نواحى الجلال والكمال فيه، ومن أعظم آثار هذه المرحلة تحقيق هذه الأصول:

الرسالة للشافعي، وطبقات فحوى الشعراء لابن سلاّم، والبيان والتبيين والحيوان للجاحظ، وتأويل مشكل القرآن لابن قتيبة.

وإن اتفق أعلام هذه المرحلة فيما ذكرت، فإن أبا فهْر محمود شاكر يقف وحده من بينهم، وينفصل عنهم بأمرين، الأول: أنه صاحب قضيّة، صحبته وأرّقته منذ النّأْنأة - أى منذ صباه ونشأته الأولى - وهى قضية أمته العربية، وما يراد لها من كيد، فى لغتها وشعرها وتراثها كلّه، وقد أبان عن هذه القضية فى كلّ ما كتب، وبخاصة فى كتابه: إباطيل وأسمار، ورسالة فى الطريق إلى ثقافتنا؛ ثم نثرها فيما دقّ وجلّ من كتاباته، وما برح يعتادها فى مجالسه ومحاوراته، يهمس بها حينا، ويصرخ بها أحياناً أخرى، لا تفرحه موافقة الموافق، ولا تحزنه مخالفة المخالف.

ولقد حكمت هذه القضية الضخمة أعمال أبى فهر كلّها، وهى التى وجّهته إلى تحقيق التراث، فكان عمله فى نشر النصوص جزءاً من جهاده فى حراسة العربية والذّود عنها، سواء فيما نشره هو، أم فيما حثّ الناس على نشره وأعانهم عليه.

الأمر الثانى: أن أبا فهر دخل إلى ميدان تحقيق التراث بثقافة عالية وقراءة محيطه، أعتقد جازماً أنها لم تتيسر لأحد من أبناء جيله، سواء من اشتغلوا بتحقيق التراث أم من انصرفوا إلى التأليف والدّرس، لقد ألقى هذا الرجل الدنيا خلف ظهره ودبر أذنيه، واستوى عنده سوادها وبياضها، وخلا إلى الكتاب العربى فى فنونه المختلفة، والمكتبة العربية عند أبى فهر كتاب واحد، فهو يقرأ صحيح البخارى كما يقرأ الأغانى، ويقرأ كتاب سيبويه قراءته لمواقف عضد الدين الإيجى، وقد قلت عنه مرّة بالتعبير المصرى «إنّه خد البيْعة على بعضها» وقد كشف هو نفسه عن ثقافته وأدواته، فقال بعد أن حكى محنته عقب ذلك الزلزال العنيف الذى رجّه رجّاً حين خرج المستشرق الإنجليزى «مرجليوث» بمقالته عن نشأة الشعر العربى، وما أثاره من شك حول صحة الشعر الجاهلى، وما كان من متابعة الدكتور طه حسين لهذه المقالة، فى كتابه «فى الشعر

الجاهلي» يقول في صدر رسالته في الطريق إلى ثقافتنا: «قد أفضى بي . . . . إلى إعادة قراءة الشعر العربي كلّه أولا، ثم قراءة ما يقع تحت يدي من هذا الإرث العظيم الضخم المتنوّع من تفسير وحديث وفقه، وأصول فقه وأصول دين (هو علم الكلام) ومِلَلٍ ونحل، إلى بحر زاخر من الأدب والنقد والبلاغة والنحو واللغة، حتى قرأت الفلسفة القديمة والحساب القديم والجغرافية القديمة، وكتب النجوم وصور الكواكب، والطبّ القديم، ومفردات الأدوية، وحتى قرأت البيزرة والبيطرة والفراسة، بل كلّ ما استطعت أن أقف عليه بحمد الله سبحانه، قرأت ما تيسّر لي منه، لا للتمكن من هذه العلوم المختلفة، بل لكي ألاحظ وأتبيّن وأزيح الثّرى عن الخبيء والمدفون».

فهذه هي ثقافة أبي فهر التي دخل بها ميدان تحقيق التراث، الذي اختار هو من عند نفسه نصوصه وأصوله، لم يملها أحد عليه، ولم يطلبها أحد منه، وكان من أبرز هذه النصوص: طبقات فحول الشعراء لابن سلام، وتفسير الطبري(١٦ جزءا) وتهذيب الآثار وتفصيل الثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأخبار، وللطبري (ستة أجزاء)، وجمهرة نسب قريش وأخبارها للزبير بن بكار (جزء منه)، ودلائل الإعجاز وأسرار البلاغة، كلاهما للشيخ عبد القاهر الجرجاني، إلى نصوص أخرى نشرها قديماً: فضل العطاء على العسر لأبي هلال العسكري، والمكافأة وحسن العقبى، لأحمد بن يوسف الكاتب المعروف بابن الداية، وإمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع للمقريزي (جزء منه).

ومما يستطرف ذكره هنا أن أول كتاب تراثي يضع فيه أبو فهر قلمه بالتحقيق هو كتاب أدب الكاتب لابن قتيبة، الذي أخرجه الشيخ محب الدين الخطيب عام ١٣٤٦ هـ ١٩٢٧م، أي منذ (٧٠) عاما، وكان عمره إن ذاك (١٨) عاماً، وقد شاركه تصحيح صفحات من الكتاب أستاذنا عبد السلام هارون، برّد الله مضجعه.

وفي هذه الأصول التراثية التي أخرجها أبو فهر، يظهر علمه الغزير الواسع الذي لا يدانيه فيه أحد من أهل زماننا؛ لأنه علم موصول بكلام الأوائل، منتزع منه ودالّ عليه ومكمّل له، والشيخ - حرس الله مهجته - يسير في طريق الفحول، لا تخرم مشيته مشية واحد من الصدر الأول.

وقبل أن أستطرد إلى ذكر أمثلة من منهج أبى فهر في تحقيق التراث، أحبّ أن أضع أمامك أيها القارىء الكريم مثالاً واحداً على دوران قضايا التراث فى عقل هذا الرجل، وأنها شغله الشاغل وهمُّه الناصب:

أخرج أبو فهر كتاب الشيخ عبد القاهر الجرجانى «دلائل الإعجاز» عام ١٤٠٤هـ = ١٩٨٤م، وكانت طبعته الأولى عام ١٣١٢هـ = ١٩٠٣م، وقد أخرجها الشيخ محمد رشيد رضا، وهذا الكتاب يعد أصلا فى علم البلاغة وإعجاز القرآن، وكان مما عالجه الشيخ عبد القاهر فيه الردّ على من يقولون «إن الفصاحة لا تظهر فى أفراد الكلمات، ولكن تظهر بالضمّ على طريقة مخصوصة، وقد عرّض الشيخ عبد القاهر بأصحاب هذه المقالة فى مواضع كثيرة من كتابه، كان منها قوله «واعلم أن القول الفاسد والرأى المدخول إذا كان صدره (أى صدوره) عن قوم لهم نباهة وصيت وعلوّ منزلة فى أنواع من العلوم غير العلم الذى قالوا ذلك القول فيه، ثم وقع فى الألسن، فتداولته ونشرته، وفشا وظهر، وكثر الناقلون له، والمشيدون بذكره، صار ترك النظر فيه سنة والتقليد ديناً» دلائل الإعجاز ٤٦٤، ٤٦٦، وانظر مقدمة التحقيق.

ويسأل الشيخ أبو فهر: من يكون هؤلاء القوم الذين لهم نباهة وصيت . . . إلى سائر ما وصفهم به الشيخ عبد القاهر؟ يقول أبو فهر: وفتّشت ونقبت، فلم أظفر بجواب أطمئن إليه، وتناسيت الأمر كلّه إلاّ قليلا، نحواً من ثلاثين سنة، حتى كانت السنة ١٣٨١هـ = ١٩٦١م وطبع كتاب «المغنى» للقاضى عبد الجبار الفقيه الشافعى المعتزلى، فى تلك السنة صدر الجزء السادس عشر من كتاب المغنى فإذا هو يتضمن فصولا طويلة فى الكلام على ثبوت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فلما قرأته ارتفع كلّ الشك وسقط النقاب عن كلّ مستتر، وإذا التعريض الذى ذكره عبد القاهر حين قال: واعلم أن القول الفاسد والرأى المدخول . . . . .الخ لا يعنى بهذا التعويض وبهذه الصفة أحداً سوى قاضى القضاة المعتزلى عبد الجبار. وبعد ذلك نقل أبو فهر عبارة القاضى عبد الجبار، من كتاب المغنى وهى أن الفصاحة لا تظهر فى أفراد الكلام، وإنما تظهر بالضم على طريقة مخصوصة.

أرأيتم أيها السادة هذه ثلاثون عاماً تصرّمت من الزمان، والقضية فى بال الرجل، كأنها همّ الليل والنهار، قضية حيّة فى عقله، جارية فى دمه، لم تسقط

بالتقادم، ولم تنسحب عليها ذيول النسيان! ومثل هذه القضية كثير فى كل ما كتب أبو فهر فى اللغة والشعر، وسائر علوم الأمة، ولا نفيض فى هذا لأن القصد الآن الكشف عن منهج الشيخ فى تحقيق التراث، وهو منهج صعب شاق، لأنه مباين لكلّ ما ألفه الناس الذين اشتغلوا بنشر الكتب من عرب وعجم، إذ كان قائماً على الجدّ والصرامة والإتقان، مستنداً إلى قراءة واسعة محيطة، مع الذكاء الشديد المح، والحفظ الجامع الذى لا يتفلت ولا يخون.

وأول ما يلقانا من منهج أبى فهر: اللغة؛ حروفاً وأبنية وتراكيب، فقد استولى من ذلك كله على الأمد، واللغة هى الباب الأول فى ثقافات الأمم، وإهمالها أو التفريط فيها، أو السخرية منها، هدم لتاريخ الأمم، ومحو لها من الوجود، وعناية أبى فهر باللغة قديمة، ومن أقدم ما كتب فيها ما نشره بالمقتطف عام ١٩٤٠، بعنوان (علم معانى أسرار الحروف – سرٌ من أسرار العربية)، وفى الفترة القليلة التى شارك فيها في إخراج مجلة «المختار» استطاع أن يقدم مستوى عالياً للترجمة الصحفية لم يعرف من قبل، وأدخل جملة من المصطلحات الجديدة فى اللغة للتعبير عن وسائل واختراعات حديثة من نوع «الطائرات النفّاثة»، وما زال الجيل الذى عاصر «المختار» من الصحفيين المعاصرين يعتبرون عناوين «المختار» التى كان يصوغها نموذجاً يحتذى، وطالما ذكر صديق عمره يحيى حقى، رحمه الله، فضله عليه فى التنبّه لأسرار اللغة وفنّية استخدامها والتعامل معها.

وإجلال أبى فهر للغة والحذر فى استعمالها واضح لائح فى كلّ ما كتب وفى كلّ ما حقق، ويقول تعليقا على كلام لأبى جعفر الطبرى، فى تفسير قوله تعالى (فأتوا حرثكم أنى شئتم): «حجة أبى جعفر فى هذا الفصل، من أحسن البيان عن معانى القرآن، وعن معانى ألفاظه وحروفه، وهى دليل على أن معرفة العربية وحذقها والتوغل فى شعرها وبيانها وأساليبها، أصل من الأصول، لا يحلّ لمن يتكلم فى القرآن أن يتكلم فيه حتى يحسنه ويحذقه» تفسير الطبرى ٤١٦/٤.

ومعلوم أن من عدّة المحقق معرفة غريب اللغة حتى يتمكن من تصحيح ما يصادفه من ذلك التصحيف والتحريف الذى منيت به بعض مخطوطاتنا، نتيجة لجهل النسّاخ، أو عوامل الزمن، ولأبى فهر فى ذلك وقفات كثيرة وتصحيحات، منها:

جاء فى تفسير الطبرى ٥٢٨/٨، من قول أبى جعفر الطبرى، تفسير الآية ٦٥ من سورة النساء «وإذا قرئ كذلك فلا مرزئة على قارئه فى إعرابه» ويعلّق أبو فهر: «المرزئة - بفتح الميم وسكون الراء وكسر الزاى - مثل الرزء والرزئية، وهو المصيبة والعناء والضرر والنقص .... وكان فى المطبوعة والمخطوطة «فلا حرد به على قارئه» وهو شيء لا يفهم ولا يقال».

وجاء فى طبقات فحول الشعراء لابن سلام ص ١٠٦ قول كعب بن زهير:

ألا أبلغا هذا المعرِّضَ آيةً   أيقظان قال القول إذ قال أو حَلَمْ

ويشير أبو فهر فى الحاشية إلى أن الرواية فى ديوان كعب، والاستيعاب لابن عبد البرّ «أنه» مكان «اية» ثم يقول: وهى ضعيفة جدا، والصواب ما فى مخطوطة ابن سلام، وقد جاء أبو جعفر الطبرى بهذا البيت شاهداً على أن الآية: القصة، وأن كعبا عنى بقوله «آية» رسالة منى وخبرا عني. قال أبو فهر: والآية بمعنى الرسالة لم تذكره كتب اللغة، ولكن شواهده لا تعدّ كثرة، ومن ذلك قول حجل بن نضلة:

أبلغْ معاوية الممزّق آيةً   عنّى فلستُ كبعضِ ما يُتقّولُ

وقول أبى العيال الهذلى:

أبلغ معاوية بن صخر آيةَ   يَهْوِى إليك بها البريدُ الأعجلُ

وهذا تفسير واضح فى الشعر، وأوضح منه قول القائل:

أتتنى آيةٌ من أمّ عمرو   فكدت أغَصُّ بالماء القَراحِ

فما أنسى رسالتها ولكنْ   ذليلٌ من ينوء بلا جَناحِ

وراجع تفسير الطبرى ١/ ١٠٦، وهذا الذى ذكره أبو فهر فضلاً عن أنه تصحيح لتصحيف، يعدُّ إضافةٌ إلى موادّ المعجم العربى.

ومن هذا الباب - باب التقاط اللغة من كتب العربية، مما لم تقيّده المعاجم المتداولة - ما جاء فى تفسير الطبرى ٢٤٨/١٦، يقول أبو جعفر «قوله تعالى (يأت بصيرا) يقول: يعد بصيرا»، ويعلّق أبو فهر «هذا معنىً يقيّد فى

معاجم اللغة، فى باب «أتى» بمعنى «عاد»، وهو معنى عزيز، لم يشر إليه أحد من أصحاب المعاجم التى بين أيدينا».

ومن تصحيحاته اللغوية العجيبة ما جاء في تفسير الطبرى ١٨٢/٩ : «فجاء اليهودىُّ إلى نبىِّ الله صلى الله عليه وسلم يهنف» ويعلق أبو فهر فيقول «فى المطبوعة والمخطوطة - من تفسير الطبرى - يهتف بالتاء، كأنه أراد يصيح ويدعو رسول الله ويناشده ولكنى رجحت قراءاتها بالنون، من قولهم: أهنف الصبىّ إهنافاً: إذا تهيأ للبكاء وأجهش، ويقال للرجال: أهنف الرجل: إذا بكى بكاء الأطفال من شدة التذلل، وهذا هو الموافق لسياق القصة فيما أرجّح.

ومن ذلك أيضا ما علّق به على قول ابن سلاّم فى الطبقات ص٥ «وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم» يقول أبو فهر «كتب فى مخطوطة» صناعة» بكسر الصاد، ثم ضرب على الكسرة (أى شطب) ووضع على الصاد فتحة، وكذلك فعل بعد فى لفظ «الصناعات»، وقد خلت كتب اللغة من النصّ على «صناعة» بفتح الصاد، إلا أنى وجدت فى كتاب «الكليات» لأبى البقاء ما نصّه: «والصّناعة بالفتح تستعمل فى المعانى دون المحسوسات، وأنها الحذق والدّربة على الشىء».

وتأمل صنيع أبى فهر، لقد أفاد من صاحبِ الكليات» ضبط «الصناعة» بفتح الصاد، لكنه خالفه فى توجيه معناه!

على أن من أعجب ما ألقاه الله على قلب هذا الرجل، من تصحيح الكلام الذى شاع خطأه فى الكتب، ولم يتنبه له أحد، ما جاء فى قصيدة عبد الله بن الزبعرى يوم أحد يرثى قتل المشركين (طبقات فحول الشعراء ص٢٣٨):

حين ألقَتْ بقَناةٍ بركها واستحرّ القتلُ فى عبد الأشَلّْ

يقول أبى فهر: «فى جميع ما وقع فى يدىَّ من الكتب «بقباء» - يعنى مكان بقناة - وقَباء قرية على ميلين أو ثلاثة من المدينة على يسار القاصد الى مكة، فهى إلى جنوب المدينة، وهذا أمر مشكل كل الإشكال، فلم أر أحداً ذكر أن القتال يوم أحد نشب فى قباء، وجبل أحد فى شمال المدينة بينها وبينه ميل أو نحوه، ويقول البكرى فى معجم ما استعجم ١١٧ «أحد: جبل تلقاء المدينة دون قناة إليها» وقناة هذه التى ذكرها البكرى أحد او ديه المدينة، وادٍ يأتى من

الطائف حتى يمرّ فى أصل قبور الشهداء بأحد، فإكاد أرجّح أن فى رواية هذا الشعر خلطاً قديماً جدا، وأن صواب الرواية ما أثبته فى الشعر» ، وانظر بقية كلامه فإنه نفيس جدا.

وبعد ذلك البيت يقول ابن الزبعرى:

فقبِلْنا النصفَ من سادتهمْ — وعَدَلْنا مَيلَ بدرٍ فاعْتدلْ

ويقول أبو فهر: وهذا أيضاً بيت تكثر روايته فى سائر الكتب «فقتلنا النصف» أو «فقتلنَا الضعف» وهو خطأ كله؛ فإن المشركين لم يقتلوا يوم أحد نصف المقاتلة، فإن من شهد القتال من المسلمين فى يوم أحد سبعمائة، قتل منهم أربعة وسبعونَ من الشهداء، ولا قتلوا ضعف ما قتل المسلمون يوم بدر من المشركين، فإن عدّة قتلى بدر من المشركين سبعون أو أربعة وسبعون وإنما أراد ابن الزبعرى أنهمَ قتلوا من المؤمنين فى أحد مثل الذى قتله المسلمون منهم يوم بدر، فانتصفوا منهم، أى أخذوا حقهم كاملا حتى صاروا على النصف سواء . . . يقول: قبلنا يومئذ العدل واكتفينا به، فقتلنا من سادتهم فى أحد مثل عدّة من قتلوا من سادتنا فى بدر. ويدل على ذلك قوله « فعدلنا ميل بدر فاعتدَل» أى صار سواء لم ترجح كفة على كفة».

ويتصل باللغة النحو، ولأبى فهر فيه وقفات جياد، تدلّ على حسن نظر وتمام فقه، ويلقاك هذا فى كثير من تعليقاته وحواشيه، وحسبك أن تقرأ فى مقدمة كتابه «رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا» شرحه لعبارة سيبويه التى جاءت فى أول كتابه «وأما الفعل فأمثلة أخذت من لفظ أحداث الأسماء، وبنيت لما مضى، ولما يكون ولم يقع، وما هو كائن لم ينقطع» فقد أدار على هذه العبارة كلاماً عاليا لم يذكره أحد من شرّاح سيبوية، ولا منْ غيرهم من النحاة.

ويرى النحاة أن جَذِيمة الآبرش الشاعر الجاهليّ القديم قد ارتكب ضرورة نحوية فى قوله:

ربّما أوفيت فى علم — ترْفَعَنْ ثوبى شمالات

حيث أكّد الفعل «ترفع» بالنون الخفيفة، وليس هذا من مواضع التوكيد؛ لأنّ الكلام موجَب، فأنت لا تقول: أنا أقومنّ إليك ويعلّق أبو فهر: ويقول النحاة: زاد النون فى «ترفعن» ضرورة، وأقول إنها لغة قديمة لم يجلبها اضطرار»

طبقات فحول الشعراء ص٣٨، وزاد ذلك بيانا فى كتابه الفذ: أباطيل وأسمار، فقال فى ص٣٨٧ «وقال ترفعن ثوبى ولم يقل «ترفع أثوابى» وارتكب تأكيد الفعل بالنون فى غير موضع تأكيده؛ لأنه جعله فى حيز كلام مؤكد حذفه، ليدل على معنى ما حذف، كأنه قال: «ترفع ثوبى شمالات، ولترفعنه هذه الرياح الهوج، مهما جهدت أضم على ثوبى وأجمعه، فلما حذف «ولترفعنه» ارتكب تأكيد الفعل الأول فى غير موضع تأكيد».

قلتُ: وقد دلّنا شيخنا أبو فهر - مشافهةً - على موضع آخر لهذه الظاهرة النحوية، فى شعر لحسّان السّعدىَ، وهو من أقدم ما قيل فى الجاهلية، وهو قوله:

أرى الموتَ ممّن شارك الماءَ	غايةً له أثرٌ يجرى إليه ومنتهى
فلاذا نعيمٍ يتْركَنْ لنعيمه	وإن قال قرِّطْنى وخُذ رِشوةً أبى
ولاذا بؤوسٍ يتْركَنْ لبؤوسه	فتنفعه الشكوى إذا ما هو اشتكى

النوادر فى اللغة لأبى زيد الأنصارى ص ٣٥٨.

أما البصر بمعنى الشعر، والوقوف عند دقائقه، وترجيح رواياته، فقد أو فى فيه أبو فهر على الغاية، والشعر كان ولا يزال هو مدخله إلى ثقافة هذه الأمة وحضارتها، وكانت قضية انتحاله والشكّ فيه هى المفجّر الأول لطاقاته وابداعه، ثم كانت هى الدافع له إلى أن يظهر على فروع الثقافة العربية كلها، ولا سبيل إلى ذكر كلّ تجليات أبى فهر فى فهم الشعر وتذوقه، وتخطئة الأقدمين والمحثين فى فهمه، فذلك مما يحتاجَ إلى سِفر خاص، ولنكتف بذكر مثالٍ واحد:

أنشد أبو جعفر الطبرى فى تفسيره ٤٧٣/٩ هذا الرجز المشهور لرشيد بن رميض العنزى - وهو الذى أنشده الحجاج بن يوسف الثقفى فيما بعد:

قد لفّها الليل بسوّاقٍ حُطَمْ	ليس براعى إبلٍ ولا غنـــم
بات يقاسيها غلامٌ كالزّلَـم	خَدلَّج الساقين ممسوحُ القدم

ورواية الشطر الأخير مما استفاضت به كتب العربية، لكن أبا فهر يقول:

«خدلّج الساقين: ممتلىء الساقين، وهذا غير حسن فى الرجال، وإنما

صوابِ روايته ما رواه ابن الأعرابى «مهفهف الكشحين خفّاق القدم» أى ضامر الخصر».

وتصحيح اللغة وتصحيح رواية الشعر مما يفيض ويتسع فى كتابات، وتحقيقات أبى فهر كلها، وهو موصول بما كتبه الأوائل فى ذلك، مثل التنبيهات على أغَاليط الرواة، لعلى بن حمزة البصرى (٣٥٧هـ) والتنبيه على حدوث التصحيف، لحمزة بن الحسن الأصفهانى (٣٦٠هـ)، وشرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف، لأبى أحمد العسكرى (٣٨٢هـ)، وتصحيح التصحيف وتحرير التحريف، لصلاح الدين الصفدى (٧٦٤هـ). ألم أقل لك إن الرجل ماضٍ فى طريق الأوائل؟

والذين لا يقرأون محمود محمد شاكر قراءة جيدة، ولا يفهمون فكره حقّ الفهم، يقولون:إنه غارق فى التراث إلى أذنيه، لا يكاد يدير وجهه عنه، وأنه شديد العصبية لآثاره ولرجاله، لا يقبل فيه ولا فيهم نقداً أو معابة، وهذا صحيح من وجه، لكنه باطل من وجه، فوجه صحّته أنه شديد التمسُّك بذلك الإرث العظيم؛ لأنه قرأه وعرف مواضع العزّة فيه، ثم إنه رأى أن الذين يعيبونه ويتنقّصونه لا يصدرون عن علم ولا هدى، وإنما هو الهوى الجامع، والمتابعة العمياء، والنظر لثقافات الأمم الأخرى نظر الذليل.

ووجه بطلانه أنه لا يسلّم بالتراث كله، ولا يذعن لرجاله كلّهم، فهو يعرف وينكر وينفى ويثبت، وآية ذلك ما تراه من نقده لبعض كتب الأوائل، ثم من نقده لبعض رجال ذلك التراث، على جلالة قدرهم وعِظم شأنهم، وهذه بعض أمثلة:

١ – وازن أبو فهر بين شرحين لأبى جعفر الطبرى والجاحظ، لبيت من شعر الكميت، ولم يَرض تفسير الجاحظ له، وقدّم عليه تفسير الطبرى، ثم نقد الجاحظ نقداً مرّاً فقال «من شاء أن يعرف فضل ما بين عِقلين من عقول أهل الذكاء والفطنة، فلينظر إلى ما بين قول أبى جعفر فى حسن تأتّيه، وبين قول الجاحظ فى استطالته بذكائه . . . . والجاحظ تأخذ قلمه أحيانا مثل الحكّة، لا تهدأ من ثورانها عليه حتى يستشفى منها ببعض القول، وببعض الاستطالة، وبفرط العقل، ومع ذلك فإن النقاد يتبعون الجاحظ، ثقة بفضله وعقله، فربما هجروا من القول ما هو أولى. فتنة بما يقول» تفسير الطبرى ٤٨٦/٢، ٤٨٧.

٢- أبو الحسن المرزوقى شيخ من شيوخ العربية، وهو شارح حماسة أبى تمام، وصاحب كتاب الأزمنة والأمكنة، وصاحب الأمالى، وقد خطّأه أبو فهر فى مواضع من شرحه لأبيات قصيدة تأبط شرّاً «إن بالشّعب الذى دون سلَع»، ومن تلك المواضع قول أبى فهر «وأما ثانى اللفظين الطليقين، وهو «مدلّ» فقد أساء الناس فهمه، وتبعوا فى ذلك المرزوقى، حين فسّره بأنه «هو الواثق بنفسه وآلاته وعدّته وسلاحه» فهذا تفسير يذبح الشعر بغير سكين»، وقوله: «وأما «يجدى» فقد ذهب المرزوقى وسائر الشُّراح إلى أنه من «الجدوى» وهى العطيّة، وهذا لغو وفساد».

وقوله: «وهذا فسادٌ كبير فى تناول معانى الشعر، ولا يُعَدُّ بياناً عنه، بل هو طرح غشاوة صفيقة من «الإبهام» ينبغى أن تزال، وإلا فقد الشعر بهاءه بانتقاصَ دلالات ألفاظه وإهمالها»، ويصف بعض شروح المرزوقى بأنه كلام لا تحقيق له «وإنما هو كذب محض، وبذلك أباد المرزوقى معنى القصيدة إبادة من لا يرحم».

ويقول: «والمرزوقى إمام جليل من العلماء بالعربية، ولكنه ليس من العلماء بالشعر فى شىء، وقد جزر البيت جزراً بسكّين علم اللغة، واستصفى دمه بتفسيره الذى أساء فيه من جهتين»، ويصف بعض كلام المرزوقى،فيقول: «وهذا كلام بارد غث سقيم، فاختلسه التبريزى فى شرحه، فلم يحس بشىء من برده؛ لأنه نشأ بتبريز من إقليم أذربيجان، وهو إقليم بارد جدا».

وراجع لهذه النصوص كتاب أبى فهر «نمط صعب ونمط مخيف» صفحات ١٨٢، ١٩١، ٢١٣، ٢٣٠، ٢٥٦، ٢٥٩، وهذا الكتاب من أوثق الدلائل على بصر أبى فهر بالشعر واللغة والنحو.

٣- ابن فارس من أئمة العربية، وله فى التأليف المعجمى كتابان جليلا القدر: المقاييس والمجمل، وقد نقل أبو فهر بعض شروحه اللغوية التى لم يطمئن إليها، فقال: «ولا أدرى هل يصح نقل ابن فارس أو لا يصح . . . . . وأنا لا أطمئن إلى أقوال ابن فارس إلاّ بحجة مؤيدة» طبقات فحول الشعراء ص٢٣٨.

٤- ممّا نشره أبو فهر قديماً جزء من كتاب «إمتاع الأسماع» للمقريزى، نشره عام ١٩٤٠م، يقول المقريزى فى مقدمة كتابه «والله أسأل التوفيق لديمة العمل بالسُّنة» ويعلّق أبو فهر فيقول: «يريد لدوام العمل، فأخطأ، وشبّه عليه

حديث عائشة وذكرت عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: «كان عمله دِيمةً» شبّهته بالدِّيمة من المطر فى الدوام والاقتصاد».

وبعد: فهذا منهج محمود محمد شاكر، فى نشر التراث، سُقته على سبيل الوجازة والاختصار، وقد أدرته على علمه باللغة والنحو والشعر، وبقى بابان من أبواب العلم، ظهر عليهما أبو فهر ظهورا بيِّناً، وامتلك أسباب القول فيهما والحكم عليها امتلاكا واضحاً: أعنى علم التاريخ، وعلم الجرح والتعديل (قبول روايات الحديث النبوى وردّها)، ولكنّ المقام لا يتّسع الآن للإفاضة فى الكلام على معرفته بهذين العلمين الكبيرين، فلعلى أفرد لهما مقالة أخرى، أستأنف بها كلاماً عن هذا الرجل الذى يعدّ رمزاً ضخما من رموز حضارتنا العربية، ولكنّ أسباباً كثيرة حجزته عن الناس، وحجزت الناس عنه، وكان هو نفسه أحد الأسباب المعِينة على ذلك، بهذه العزلة التى ضرب بها على نفسه، ثم بتلك الصّرامة التى يعامل بها الأشياء والناس، والبشر منذ أن برأهم خالقهم يحبُّون الملاينة والملاطفة، ثم المصانعة التى أشار إليها زهير بن أبى سلمى فى معلّقته الشريفة، ولكنّ أبا فهر اختار الطريق الأعظم، وترك الطرق التى تتشعب منه، وهى التى تسمى «بنيّات الطريق»، فكاشف وصارح فيما بينه وبين نفسه، وفيما بينه وبين الناس، ومنذ أن ظهرت أمامه غواشي الفتن التي أحدقت بأمته العربية؛ فتح عينيه، وأرهف سمعه، ثم شدّ مئزره وأيقظ حواسّه كلّها، يرصد ويحلّل ويستنتج، ثم قال: «فصار حقّاً علىّ واجبا ألاّ أتلجلج، أو أحجم، أو أدارى» أباطيل وأسمار ص١٠.

وكان أن دخل بيته بعد أن استتبّ الأمر له: علماً وفكراً، مئاتٌ من طوائف الناس، من شرق وغرب، جالسوه واستمعوا له، فمنهم من آمن بمنهجه، ومنهم من صدّ عنه، وكان على الذين آمنوا بمنهجه أن يصبروا على لأواء الطريق، ويحتملوا أعباء المتابعة، على ما قال على بن أبى طالب رضى الله عنه، «من أحبّنا أهلَ البيت فليعدّ للفقر جلبابا» ولكن لأنه منهج صعب مكلّف، وطريق عسر شائك، فما آمن معه إلا قليل!

هذا وما أحب أن أختم كلمتى هذه قبل أن أؤكد ما بدأت به حديثى: أن أبا فهر إنما دخل ميدان تحقيق التراث خدمةً وعوناً على قضيتّه الكبرى: قضية تاريخ أمّته العربية، ثم إزالة الغبار الذى طمسن معالمها، وعلى هذا فلا ينصفه من

يذكره في عداد المحققين والناشرين، إن تحقيق التراث بالنسبة له عملٌ هامشيّ، ولذلك تراه يكتب على أغلفة كثير من تحقيقاته هذه العبارات: قرأه وشرحه، أو قرأه وعلق عليه، أو قرأه وخرّج أحاديثه.

سيّدى أبا فِهر: لئن عرف علَمك العارفون، وغفل عن ذكرك الغافلون

فلقد عُرِفْتَ وَمَا عُرِفْتَ حقيقةً ولقد جُهِلْتَ وما جُهِلْتَ خُمولا

رحمك الله وغفر لك، ورضى عنك، وجَمَعنا وإياك فى بَرْد العيش وقَرار النعمة: جناتِ عدن التى وعد الرحمن عباده بالغيب إنه كان وعده مأتيا.

والحمد لله فى الأولى والآخرة، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

محمود محمد شاكر فى الصحافة المصرية

بقلم د/ شعيب عبد المنعم الغباشي

مقدمة:

لا أدرى هل الصحيفة هى التى تصنع الكاتب أم أن الكاتب هو الذى يصنع الصحيفة؟ الواقع والتاريخ يؤكدان أن الكاتب هو الذى يصنع أولا، وعن طريقه وبجهوده وبفكره تنشأ الصحافة، فيكتب فيها ويسود صفحاتها بمداد قلمه، إذن مامن كاتب مرموق إلا وقد ظهر أولا وساهم فى إمداد الصحف بمقالاته وأبحاثه ونتاجه. صحيح أن الاحتكاك قد ينضج هذا الكتاب أو ذلك بعد التجربة والممارسة والدربة، ولكن، لولا أن هذا الكاتب يملك من القدرات والملكات القدر الكبير، الذى يمكنه من أداء دوره ببراعةِ واقتدار، ماظهر هذا الكاتب على الساحة وماترك عملا يُشكر أو أثراً يُذكر!.

والحقيقة أن الكاتب محمود محمد شاكر من هذا الطراز من الكتاب الذين نشأوا فى جو علمى رصين، ومناخ فكرى أصيل، ساعده ولاشك على أن يؤسس منذ نعومة أظافره على العلم والأدب والثقافة والمعرفة، وكيف لا، وهو الذى يرى أن الطريق إلى تحديث الأدب العربى نصاً ونقداً ينطلق من استيعابه فى موروثه، وتطويع المستحدث لخدمة هذا الموروث لأن «الجديد»و«التجديد» لا يمكن أن يكون مفهوما ذا معنى إلا أن ينشأ نشأة طبيعية، من داخل ثقافة متكاملة متماسكة حية فى أنفس أهلها ثم لايأتى التجديد إلا من متمكن النشأة فى ثقافته، متمكن فى لسانه ولغته، متذوق لما هو ناشئ فيه من آداب وفنون وتاريخ»[1] ولقد طبق – بالفعل – هذا المنهج على نفسه فكان نموذجا حياً له.

ومن هنا، فإن محمود شاكر، عندما بدأ يكتب فى الصحافة المصرية ويسهم فيها بنتاجه الأدبى وبإبداعه الفكرى وبدراساته التراثية والنقدية، كان قد تأسس تأسيسا أدبيا ووقف على مجد الأجداد وتراث الآباء فى الفقه واللغة والأدب والدين، فجاءت إسهاماته منذ بدايتها على درجة كبيرة من العمق والاتقان وإن كان هذا لا يمنع أنه من خلال الكتابة اكتسب خبرة ودربة، ولولا

الممارسة والتعود، ما كانت هذه الخبرة ولا تلك الدربة.

اهمية الدراسة:

تنبع أهمية هذه الدراسة من مكانة الكاتب الذى تدور حوله وأهمية الدور الثقافى الذى لعبه فى عصرنا الحديث، ومنزلته الأدبية والفكرية بين أبناء جيله وأقرانه فمحمود شاكر كما يقول عنه الدكتور محمود حجازى شخصية نادرة وعبقرية واضحة الملامح، حياة جادة ومواقف صلبة، تكوينه الثقافى والعلمى يمثل نمطاً فريداً، ولقد تجاوز أثر محمود شاكر مجالات تحقيق التراث إلى الإبداع الشعرى والمقالات الثقافية الكثيرة. وفوق هذا كله فقد كان له دور كبير فى تكوين جيل كامل من محققى كتب التراث العربى وفدوا إليه من كل الأقطار العربية(٢)

ومن هنا، فإن الوقوف على طبيعة الدور الذى أداه محمود شاكر وإسهاماته فى الصحافة المصرية يكون أمراً له أهميته، حتى نتعرف على الصحف التى أسهم فى الكتابة إليها ونوعية المشاركة فى هذه الصحف من مقالات أدبية ودراسات نقدية وقصائد شعرية، ولذلك رأينا الأديب كمال النجمى ينبه إلى القيمة الفنية العالية لبيان محمود شاكر وضرورة الاهتمام من جانب الباحثين والدارسين بدراسة أسلوبه وأهمية أن تجمع مقالاته وقصائده المنشورة فى صحف كثيرة(٣).

هدف الدراسة:

تهدف هذه الدراسة الوصول إلى تحقيق مجموعة من الأهداف وتتمثل فيما يلى:

١- كشف النقاب عن جانب مهم من عطاء الشيخ محمود شاكر الذى اشتهر بين المعاصرين على أنه من كبار محققى كتب التراث، ولم تكتب دراسة علمية لإبراز إسهاماته فى الصحافة المصرية.

٢- الوقوف على ماهية الصحف والمجلات المصرية التى كتب فيها محمود شاكر، لتحديدها ورصدها حتى يمكن الرجوع إليها فى الوقت

المناسب.

٣- الوقوف على نوعية الكتابة التى كان يقدمها الشيخ شاكر فى الصحافة.

٤- رصد الصحف المصرية التى اهتمت بحدث وفاة الشيخ شاكر، ومدى الاهتمام الذى أعطته لهذا الحدث.

الدرسات السابقة:

لم يجد الباحث أية دراسات تناولت جهود الشيخ محمود شاكر فى الصحافة المصرية بشكل محدد، وإن كانت هناك دراسات وبحوث تناولت جهود الشيخ الثقافية أو الأدبية ومن أهمها مايلى:

١- دراسة كتبها مجموعة من الباحثين بعنوان: «دراسات عربية وإسلامية» القاهرة، مطبعة المدنى، فى هذه الدراسة تناول الباحثون كل من جانبه، موضوعا يتعلق بزاوية محددة من حياة الشيخ شاكر، فنرى الدكتور إحسان عباس يختار جانب الابداع، ليكشف من خلاله تصور الشيخ شاكر لعلاقة الإنسان بالابداع ، ويتناول فتحى رضوان جانب الأسلوب عند الشيخ شاكر، ليصل فى بحثه إلى أن هذا الأسلوب وصاحبه شئ واحد، وإن كانت هذه الحقيقة لا تظهر لكل الناس.

٢- دراسة محمود إبراهيم الرضوانى بعنوان: «أبو فهر محمود محمد شاكر بين الدرس الأدبى والتحقيق، القاهرة، مكتبة الخانجى، والدراسة محاولة لتوضيح ثقافة أبو فهر ومصادر هذه الثقافة التى ظهرت أثرها على نتاجه الأدبى سواء فى الدرس الأدبى أو التحقيق للتراث، كاشفا عن روافد ثقافته الأولى وأهم المؤثرات التى أثرت فى حياته.

٣- دراسة عمر حسن القيام بعنوان «محمود محمد شاكر الرجل والمنهج» وتقدم هذه الدراسة السيرة الخاصة بحياة المفكر الإسلامى محمود شاكر الذى يعد أحد أركان الثقافة الإسلامية والعربية فى العصر الحديث، كما كشفت الدراسة عن منهج الشيخ من خلال موقفه من قضية الشعر الجاهلى.

والملاحظ على هذه الدراسات أنها تركز بالدرجة الأولى على الجوانب الأدبية والثقافية والفكرية فى حياة الشيخ شاكر ولم تتعرض من قريب أو من بعيد للإشارة إلى الدور الذى قام به الشيخ فى الصحافة المصرية التى نشرت على صفحاتها أهم أعماله الأدبية والفكرية.

ومن هنا، فإن هذه الدراسة التى يتصدى لها الباحث، تأخذ على عاتقها إبراز هذا الدور، ورصد الصحف التى كتب وأسهم فيها الشيخ شاكر وأهم هذه الأعمال التى قدمها من خلال تلك الصحف.

مشكلة الدراسة وتساؤلاتها:

إذا كانت كل دراسة علمية لابد أن تتصدى لمشكلة بحثية، فإن مشكلة هذه الدراسة تتمثل فى معرفة مدى الدور الذى أداه الشيخ محمود شاكر فى الصحافة المصرية وماهية الصحف، والمجلات التى كتب فيها، وطبيعة الكتابة التى كان يتناولها فى تلك الصحف وكذلك معرفة الصحف المصرية التى تناولت حدث وفاته واهتمت به، وتحدثت عنه، ومن هنا فإن هذه الدراسة تسعى للإجابة على مجموعة من التساؤلات التى تتعلق بمشكلة الدراسة وهى على النحو التالى:

١- متى بدأ محمود شاكر فى الكتابة بالصحف، وما أول صحيفة كتب بها؟.

٢- ما أبرز الصحف المصرية التى أسهم فيها الشيخ شاكر؟

٣- ما أبرز المعارك الأدبية التى خاضها الشيخ فى الصحافة المصرية؟

٤- ما أبرز القوالب التحريرية التى استخدمها الشيخ شاكر فى الكتابة؟

٥- ما الصحف التى أصدرها الشيخ شاكر؟

٦- ما موقف الشيخ شاكر من التيارات الوافدة فى مجال الفكر والشعر؟

٧- ما أثر البيئة الأسرية والمجتمعية التى نشأ وعاش فيها الشيخ شاكر على علمه وفكره؟

٨- مادرجة مشاركة الشيخ شاكر بالكتابة فى الصحافة المصرية مقارنة بغيره من معاصريه؟

نوع ومنهج الدراسة:

تعتبر هذه الدراسة من الدراسات الوصفية التى تستهدف تقرير خصائص ظاهرة معينة أو موقف تغلب عليه صفة التحديد، وتعتمد على جمع الحقائق وتحليلها وتفسيرها لاستخلاص دلالتها، وتصل عن طريق ذلك إلى إصدار تعميمات بشأن الموقف أو الظاهرة التى يقوم الباحث بدراستها(٤) .

وفى إطار الدراسة الوصفية استخدم الباحث المنهج التاريخى بهدف الوقوف على بداية كتاب الشيخ شاكر فى الصحافة وتتبعها والوقوف على نوعيتها، ومعرفة طبيعة هذه الصحف التى أسهم فيها، وكذلك استعان الباحث بمنهج المسح، لمعرفة الأعمال التى قدمها فى الصحافة المصرية، ورصدها، بقصد لحصول على بيانات ومعلومات كافية يمكن الاستفادة منها(٥) .

الصحف التي كتب فيها محمود شاكر:

فإن الحديث عن العلامة محمود محمد شاكر، حديث يطول، وله وجوه كثيرة وجوانب متعددة بتعدد ثقافة الرجل وشمولها وسعتها ، واستعابها(٦) وليس فى سعة الباحث – أى باحث – أن يتناول كل هذه الجوانب وكل هذه الآثار. . . ومن ثم فإن هذه الدراسة لن تعنى من حياة الشيخ إلا بالجهود التى بذلها فى الصحافة المصرية، وتناول الصحافة لحدث وفاته وماتبعه(٧) .

ومعروف أن الشيخ شاكر نشأ فى بيت فضل وعلم وجهاد، ولا شك أن هذه النشأة المتفردة ساعدت بشكل وافر على تشكيل عقليته وبناء ثقافته حتى بلغ درجة رفيعة المستوى من العلم والمعرفة عندما وصل إلى مرحلة حصوله على البكالوريا الثانوية حاليا(٨) .

(ولقد ظهرت آثار تلك النشأة وهذه الثقافة والمعرفة العميقة عند نشوب أو معركة علمية خاضها الشيخ شاكر فى العام الذى التحق فيه بكلية الآداب جامعة الملك فؤاد الأول- القاهرة حاليا-

ويالـه من قدر عجيب أن تكون أولى معارك هذا الشاب مع من؟ مع أستاذ كبير مثل الدكتور طه حسين وحول قضية من أخطر القضايا فى ثقافتنا العربية المعاصرة، ألا وهى قضية انتحال الشعر الجاهلى، وفيها يقف التلميذ الشيخ شاكر يرد ويعترض ويفند آراء أستاذه الدكتور طه حسين وكانت هذه المعركة هى السبب الأول والأخير فى أن يترك الشيخ شاكر مدرجات الجامعة كلية وإلى الأبد، لأنه اقتنع بأن الجامعة لن تعلمه إلا علما لايرضى عنه ولايوافق عليه فترك الجامعة غير آسف - عليها وذلك فى عام ١٩٢٦(٩).

ومنذ ذلك العام بدأ صلة الشى شاكر بالصحافة المصرية وكانت مجلة «الزهراء» الاجتماعية والأدبية التى كان يصدرها الكاتب السورى السيد محب الدين الخطيب، أول مجلة كتب فيها، وأول أعمال الشيخ فى هذه المجلة قصيدة شعرية بعنوان «يوم تهطال الشجون» قال فى مطلعها:

أيها الراسف فى أغلالـــه … إنـك اليـوم لَموْهـون منين

ذلٌ ذو التاج على رُغم لِقى … ونأى عنـه وقد عـز القطين

أذْؤبُ الدهر ترامت نحـوه … دخلوا الأرض دخول الفاتحين

عَلم الله، فمـا نالـوا بـه … عـزة النصر والفتـح المبين

ماهم غيـر سَعـال قُبحت … خدعوا الناس وغـروا الجاهلين

حتى يصل إلى نهاية القصيدة فيقول:

نصح الناصح قوما نلبـوا … سنن المجد ونامـوا هادئين

رحمة الله لهم، هل علموا … أن للمجد رجـالات دَهين

فإلى المجد خِفافا، أودعـوا … مَكر الداء وحرّاز الأرون(١٠)

(وتحت عنوان «الناسخون الماسخون» كتب محمود شاكر قصيدة طريفة سجل فيـها انطباعاته حول أخطاء بعض الناسخين، قدم لها محب الدين الخطيب بقوله: لما كانت صناعة النسخ فى العصور الإسلامية الأولى يعهد بها إلى رجال من أهل العلم والأدب يسمون «الوراقين» وكان يشترط فيهم التضلع

بالعلم الذى ينقلون كتبه وينشرونها، لما يشترط فى الراوية أن يكون من أهل التبصر بالشعر، ولذلك كان لكل عالم «وراق» كما كان لكل شاعر «راوية» فلما جاءت عصور الانحطاط، طمع بهذه الصناعة غير أهلها ففسدت الكتب وكثر خطأها، ومن هذا القبيل الأغلاط الواقعة فى نسخة كتاب «التيجان فى ملوك حمير» لابن هشام، فقد شكا العلامة الشيخ عبد العزيز الراجكوتى الميمنى الربيع بن ضبع استطاع بكثير من الكتب أن يصحح بعض تلك الأخطاء، وبقى بعضها، وقد اقترحت على صديقى السيد محمود شاكر أن يبحث عن شعر الربيع فى كتب الأدب واللغة ليصحح مابقى من الأغلاط فلما أعياه الأمر بعد سهر طويل بعث إلينا ببطاقة هذا نصها:

فلو أن «ذا القرنين» طالت حياته	وأبصر ما قد جمع ابن هشـام
وأبصـر أقـوال الربيع وشعـره	سودا مجناً فى دُجى وظـلام
لحيـره ماحيـر (ابن محمـد)	فبات على شوك ضجيع سَقَام
وهل سقم إلا (مصادر) لم تُنِلْ	مُرادا ولم تُطلـب بأى مَـرام
فتى الهند أعيته، فهل أنا قادر؟	فلست إذا ما لم أصب بمُلام
وآخر عجز المرء تعدُ تنصـل	وآخر ما أهدى إليك سلامى(١١)

ومن الأعمال الأدبية التى كان تمثل المرحلة الأولى من كتابات الشيخ شاكر قصيدة شعرية بعنوان «النجم الواتر والصبح الثائر» يقول فى مطلعها:

نجم كقلب المحب يضطـرب	يدعو سواد الدجـى ويرتقب
كساه فجـر النهـار بردته	بيضاء تُطوى بنشرها الشهب(١٢)

والجديد الذى قد لايعرفه الكثير أن الشيخ شاكر فى بداية اتصاله بالصحف، كان أحيانا يؤدى دور المحرر الصحفى، ونرى ذلك واضحا من خلال العمل الذى قدمه إلى مجلة «الزهراء» وهو عبارة عن قيامه بحضور بعض المحاضرات العلمية وتسجيلها كتابة ثم كتابة تلخيص عنها لنشره بالمجلة، وهذه المحاضرات كان قد ألقاها العلامة المحقق الأستاذ نالينو E-A-Nalino فى

الجامعة المصرية عن تاريخ اليمن القديم وأسماء الأوربيين الذين ارتادوا تلك الديار باحثين عن ماضيها وحاضرها، تقول المجلة: نحن ننشر ذلك ملخصا مما كتبه صديقنا السيد محمود محمد شاكر الذى أخذ على نفسه كتابة هذه المحاضرات سماعا من الأستاذ نالينو(١٣).

ولا شك أن تبكير الشيخ بالكتابة فى المجلات الأدبية فى ذلك الوقت يدل دلالة واضحة، ويبرهن برهنة صادقة على حقيقة ما أشار إليه الباحث آنفا، وهو أن الشيخ تأسس منذ نعومة أظافره، تأسيساً علميا على نحو فريد لايتاح إلا لمن وهب ملكة البحث والفكر وحب المعرفة وأراد الله تعالى له وبه الخير والنفع(١٤).

وكانت بداية المحطة الثانية للشيخ شاكر فى الصحافة المصرية فى مجلة «البلاغ» لصاحبها عبد القادر حمزة وذلك فى عام ١٩٣٠.

وفى عام ١٩٣٢ بدأت تظهر كتاباته واسهاماته الفكرية والأدبية والنقدية فى الصحف وخاصة على صفحات مجلة «المقتطف» لصحابها الكاتب اللبنانى فؤاد صروف، وكانت هذه الاسهامات فى البداية تتمثل فى عرض ونقد أهم المؤلفات التى كانت تصدر فى ذلك الحين مثل كتاب «حافظ وشوقى» لطه حسين و«ضحى الإسلام» لأحمد أمين و«أبو نواس» لعمر فروخ، ومن قصائده التى نشرها فى «المقتطف» قصيدة بعنوان «صانعة الدموع» وفى الذكرى الألفية لوفاة شاعر العربية الأول أبى الطيب المتنبى، كان هناك حافز قوى لإحياء هذه الذكرى، وإماطة اللثام عن سر عظمة المتنبى، وتبارت فى هذا شتى الصحف والمجلات، ولذلك رأينا مجلة «المقتطف» تخصص لأول مرة فى تاريخها عددا خاصا عن المتنبى يتولى تحريره من أوله إلى آخره، محمود محمد شاكر وقد بلغ عدد صفحات العدد مائة وسبع وستون صفحة، وفيه تناول الكاتب حياة المتنبى من خلال شعره، وتفسير ما أشكل من هذا الشعر، وماخفى من أسرار قائله، وقد انتهى فى هذه الدراسة إلى أشياء انفرد بها، كان الناس قبله يتقبلونها دون شك، وتتصل بوضاعة أصل المتنبى، فقد انتهى من خلال تطبيق منهجه فى هذه

الدراسة إلى أن المتنبى كان علويا أى هامشيا قرشيا، ولم يكن من أصل وضيع، وهو اتجاه يقف فيه وحده قديما وحديثا، فكان أول من قال به ودعمه، ودلل عليه، فى ضوء منهجه الذى يجمع بين دراسة شعر الشاعر تذوقا، وجمع كل ما أمكن أن يقع فى يديه من تراجم أبى الطيب التى كتبها الأولون وما أتيح له مما كتبه المحدثون، وقرأ هذه التراجم راداً الأخبار إلى أصولها التى نقلت عنها ورتبها تاريخيا، حتى يتسنى له أن يعرف مواطن التغيير والتبديل التى لحقت هذه الأخبار، وفى نقل كل مؤلف عمن سبقه(١٥)

وكتب صاحب «المقتطف» يقدم دراسة شاكر بقوله: هذا العدد من «المقتطف» يختلف عن كل عدد صدر منذ ستين سنة إلى يومنا هذا فهو فى موضوع واحد، ولكاتب واحد، أما الموضوع فأبو الطيبِ المتنبى، وأما الكاتب فالأستاذ محمود محمد شاكر، وقد رأى محرر «المقتطف» فى العناية بالاحتفال بإنقضاء ألف سنة على وفاة المتنبى وفى طرافة المباحث التى انطوت عليها رسالة الأستاذ شاكر ما يسوغ له أن يجعل هذا العدد بمثابة كتاب يرفعه إلى أبى الطيب المتنبى، فقد استطاع أن يكشف من شعر المتنبى عن دقائق حياته وينقض الروايات المنقولة إلينا عن أصله ونشأته، وحبه ومصرعه، ويصل بين حياة الرجل وأحداث عصره وبذلك اتسعت حياة المتنبى واتصل أولها بآخرها، وقلت الفجوات فى تسلسلها واستقام فهمها على أساس معقول من الأدب والتاريخ.(١٦)

وفى هذه المرحلة التى كان يتعامل فيها محمود شاكر مع «المقتطف» استعان به صديقه فؤاد صروف فى ترجمة العديد من الأعمال التى نشرت بمجلة «المختار».

أما المحطة الثالثة فى حياة الشيخ محمد شاكر فكانت فى مجلة «الرسالة» فى إصدارها الأول والثانى، وفى الإصدار الثانى على وجه الخصوص كتب شاكر فصولا عظيمة، يرد فيها على الدكتور لويس عوض، وقد رأى فيما يكتب هذا خبثا شديداً، فصار حقا عليّ واجبا – كما يقول عن نفسه – ألا أتلجج أو

أحجم أو أجمجم، أو أدارى مادمت قد نصبت نفسى للدفاع عن أمتى ما استطعت إلى ذلك سبيلا»(١٧).

وكان الدكتور لويس عوض وهو المتخصص فى اللغة الإنجليزية يقف من الحضارة العربية وإسهاماتها موقفا معاديا، لايراها شيئا، وأن دورها انتهى فإذا أرادت مصر أن تنهض فإن عليها أن تتخطاها، وتعود إلى أصولها الفرعونية، فإذا وجد فى التراث العربى ما يفرض نفسه على الزمن ويعسر إنكاره، رده إلى أصول غير عربية، لاتينية مسيحية فى الأعم الأغلب، فالعرب عنده إما جهلة أو ناقلون، وقد صنع ذلك مع ابن خلدون فى مقدمته العظيمة، فرآه أندلسى الأصل، عاش فى الأندلس أعواما، وسفر لأمير غرناطة عند ملكها القطلونى، وأنه كان يعرف لغته القطلونية، وإلا فكيف تحاور معه؟ وعن هذه اللغة، عرف ثقافته، ونقل أفكاره، والقضية بهذه الصورة كلها أخطاء، لأن سفارة ابن خلدون كانت لدى ملك قشتالة، لاقطلونية، وهذا كان يتكلم اللغة القشتالية، وهى تختلف عن القطلونية، وكان هذا الملك القشتالى يعرف العربية، ويوقع بها قراراته «أنا الملك» وذلك ثابت فيما وصل من وثائقه، ولم يكن ابن خلدون هو الذى يعرف القطلونية أو القشتالية، إلى تخاريف أخرى لا أساس لها من الصحة ولا تثبت أمام النقد.(١٨) ولقد كان من سوء حظ لويس عوض أن مقولته هذه لم تجد فى وقتها من يشجب جهلة فيما يدعى، فانتقل إلى مثلها مع قمة أخرى من قمم التراث العربى، إلى شيخ المعرة، أبى العلاء المعرى، وزعم أن فلسفته وفكره صدى للفكر المسيحى الذى كان يلف مدينة حلب الشهباء فى تلك الأيام، بفعل الأديرة التى بها من جانب، وسيادة الصليبيين من جانب آخر، وأن أفكار أبى العلاء أخذها عن رهبان التقى بهم فى الأديرة، وراح ينشر هذا الكلام فى الصفحة الأدبية لجريدة «الأهرام» ولأنه مدفوع بعوامل نفسيه ضاغطة، غير علمية، وحظه من معرفة التراث العربى، أدبا ولغة وتاريخا، قليل واهن أو لاشئ ويقرأ هذا القليل بعاطفته لابقلبه، وعاطفته كارهة، فقد حرف بيتا من الشعر للمعرى قاصداً، أو غير واع، وكلا الأمرين واحد، ليخدم حاجة فى نفسه، والبيت:

صليت جمهرة الهجير نهارا   ثـم باتت تغص بالصلبـان

وصحة البيت تغص بالصليان والمعنيان جد مختلفين . . فالصلبان جمع صليب وهو رمز - مسيحي دينى و«الصليان» نبات وبتحريف البيت أو الجهل بقراءته كشف الدكتور لويس نفسه وعلمه من حيث لايدرى(١٩)

تصدى الشيخ شاكر على صفحات مجلة «الرسالة» فى سلسلة مقالات يرد فيها على شبهات وأراجيف الدكتور لويس عوض، وتمثل هذه الردود قمة غيرته على العربية والإسلام، وهى فصول فى النقد والتحليل والنقد من أثمن ماعرفت العربية، دفاعاً عن تراثها، وبها أطفأ فتنة، وأخاف متربصين، وأخمل الدكتور لويس عوض، الذى ولى هاربا مهزوما، وتخلى عن المعركة، ووقع على حقيقة أن البحث فى التراث العربى يتطلب معرفة دقيقة واعية به، وأنه ليس على شئ من ذلك. وكسبت العربية هذه الفصول النقدية النادرة فى كتاب من جزءين حمل عنوان: «أباطيل وأسمار»(٢٠)

وفى عام ١٩٣٨م استطاع الشيخ محمود شاكر، أن يحصل على امتياز مجلة «العصور» لصاحبها إسماعيل مظهر، ليصدرها أسبوعية، بعد أن كانت تصدر بصفة شهرية، ولكن - فى الواقع - لم يتمكن الشيخ من إصدار هذه المجلة أكثر من عددين، الأول فى ١٩ نوفمبر ١٩٣٨، والعدد الثانى فى ٩ ديسمبر ١٩٣٨م، ثم توقفت المجلة عن الصدور بعد أن دفع الشيخ بالعدد الثالث إلى المطبعة.

وفى عام ١٩٤٠ بدأ الشيخ فى صحيفة «الدستور» اليومية، ولسان حال الهيئة السعدية وكان أول مقال كتبه فى «الدستور» بعنوان: «الطريق إلى الأدب» ذكر فيه أن: الأديب يخاطب بالكلام الواحد أصنافا متخالفة من الناس، ما بين عالم، قد فرغ للعلم، وفيلسوف قد فرغ للفلسفة، وثائر قد فرغ للثورة على النظام، وبليد قد رضى بما استقر عليه أمره وصانع يعمل بيديه فى طلب رزقه، وأنثى تعمل بروحها فى تفسير معنى الرجل وامرأة تعمل بقدرتها فى إنشاء الرجل أو إهلاكى، وجاهل غار مفتون لايدرى ما يوعد من غده إلا أن يبصر، وما بين شقى وسعيد ومترف وفقير ومبتوت وأثير، ومن رضى عن الحقيقة الواقعة

التى تأخذها عينه، فلم يزل إلى ما وراءها، ومن قلة إلى المجهول حتى زاغ واضطراب ومضى هائما يتردد، كل أولئك لهم عليك حق، وله عندهم مسانح، إن ظفر به أدرك ما أرادوا واستبدبهم وبأفكارهم وأحلامهم وأحبهم وأحبوه وقدموه. وجعلوا له المنزلة فى أنفسهم لاتدانيها منزلة، ووثقوا به ثقة الأخ لأخيه المخلص، واسترشدوه إذا ضلوا، واستشاروه إذا حاروا وصحبوه إذا انفردوا، فكان لهم عوناً وكانوا له أنصارا(٢١)

ولقد أثار الشيخ شاكر فى صحيفة «الدستور» الكثير من القضايا الأدبية والفكرية، فكتب تحت عنوان «فوضى الأدب وأدب الفوضى» أكد فيه على: أن الفوضى الاجتماعية، إنما تعقب عصور القوة الحاكمة المتسلطة، وذلك إذا بدأت تنهار بعد الاستكانة إلى غرور هذه القوة، وهذا السلطان، وإذا انهار السلطان الاجتماعى القوى، كانت الفوضى بتمامها وبأدق معانيها، وتعيش الأمة بعد ذلك فى فوضى أى فى ضعف مستمر ليس له حاجز يلجأ إليه أو ليس له من القوة ما يرتفع به حتى يعتصم بهذا الحاجز إن كان قد بقى منه شئ وإذا بلغت الأمة هذا المبلغ، فالرجاء فى قيامها من كبوتها، هو رجاء باطل، ليس له أصل فى السماء ولا فى الأرض، وعلى ذلك فإن أدب مثل الجيل الذى تغلب عليه الفوضى الإجتماعية لا تكون إلا أدبا فوضى من عقول فوضى بآراء فوضى إلى غايات فوضى، أدب لا يرجع إلا إلى الفوضى، ولا ينتهى إلا إليها، فإذا انقشع غبار الفوضى وتجلت عمايتها على الناس كان مصير هذا الأدب أن يحكم عليه بالإعدام، فيقتل ثم يلقى فى حفرته إلى التعفن والبلى، فإذا خفف الحكم كان حكما بالأشغال الشاقة المؤبدة ليعمل فى البناء التاريخى للأمة(٢٢).

وهكذا فإن الأدب فى فكر الشيخ شاكر هو أدب بنائى، يبنى ولا يهدم، يصلح ولا يفسد، يعمر ولا يخرب، والأدب الذى على هذا النحو ينبغى أن يكون صادراً عن مجتمع قوى متماسك لا ضعيف، خائر، متهاوٍ ومن هنا رأيناه يكتب تحت عنوان «الأدب والحرب» يبرز فيه بعض المهام والوظائف التى يمكن أن يؤديها الأدب فيقول: إن الأدب هو تعبير الروح الإنسانية السامية النبيلة، والحرب

الحاضرة، هى تعبير الروح الإنسانية التى اختبلها مس من الشيطان المتدلى إلى هوة سحيقة من الغرائز الوضيعة، وسنرى والله يعصمنا، ويعصم القارئ، وهو الحافظ، كيف يعبر المعنى السامى حين يهتز بالمعانى الوضيعة، وسنرى أبالسة الأدب ينطلقون فى كل فج ومن كل حدب ينسلون على الناس بشهواتهم المقكلمة فى شعرهم ونثرهم وأفكارهم المستكلبة، وأنا لا أدرى ما خبأ الله للناس. (٢٣)

ويرسم الشيخ شاكر الطريق الذى ينبغى أن يسير عليه الأدب، والغاية التى يسعى إليها، فكتب تحت عنوان «كيف ينبغى أن نعمل؟» يقول فيه: إن غاية الأدب هى إنشاء الروح الإنسانية فى كل جيل، إنشاء سامياً عبقريا، يستطيع أن يقاوم الفساد الذى يتطرق دسيساً إلى النفس فى ركودها بتتعفن بآفات كثيرة تعرض لها من قبله تستطيع معها الجراثيم الماردة أن تعملَ عملها الشيطانى فى إبادة الإيمان الذى فطرت النفوس البشرية على محبته والحرص عليه(٢٤).

وإذا كان قد اشتهر عن الشيخ شاكر بأنه محقق وأديب إلا أنه أيضا كان سياسيا، ويحمل قلمه لينافح به فى سبيل استقلال بلاده من المستعمر، ويصف هؤلاء الذين يساعدون على إشاعة الشبهات والشهوات بين الأمة، يصفهم بالخيانة، فنراه يقول: إن بعض الخيانة يكون بتسليم العدو سلاحا من أسلحة الوطن السرية التى تدفع عنه عادية الشر الذى تصيبه عليه الأعداء، ولكن أعظم الخيانة أن تعمل على نزع سلاح الوطن باللذة والطراوة والرفاهية وطلب الراحة ورفض الجهد حتى يجد الوطن أبناءه وهم يتخلون عنه بالتأنيث والخلاع والمرح وإطلاق وحوش الشهوات من عقالها، فتغرق فى وجه تطلب صيدها الذى تجد فيه شبعا من جوع وريا من ظمأ، وحتى تعود النفس طالبة، وتأبى أن تكون مجاهدة فى الطلب(٢٥)

كما كتب يطالب بتجلية التاريخ المصرى، حتى يقف الكل على حقيقة معدن هذا الشعب، فيقول : إن الروح لا تموت لأنها تستمد سلطانها من سلطان الله، وإن القلب لا يسكن لأن بسكونه هو حقيقة الموت، وإن العقل لا

يؤسر ولايقيد لأنه حر لايستعبد وإن الزمن قد أشرق بنا على مجد وعزة، ينبغى أن نجدد تاريخنا القديم بمجد مستحدث مستجد(٢٦)

وهاجم هؤلاء الذين ينحون نحو الغرب، ويبكون على ضياع باريس واحتلالها ومابكوا يوما على الأرض التى تحملهم والوطن الذى يجمعهم والشعب الذى يؤيهم، فكتب تحت عنوان: «لا تبكوا ولا تنحوا» متمثلا قول القائل:

موت بعض الناس على البعض فتوح　　　فعلى نفسك نُح إن كنت لابد تنوح(٢٧)

ويكتب الأستاذ محمود شاكر فى الأعداد الأربعة الأولى من مجلة «المسلمون» لسعيد رمضان، الأولى «حكم بلا بنية» والثانية «تاريخ بلا إيمان» والثالثة «لاتسبوا أصحابى» أما المقالة الرابعة والأخيرة. فكانت بعنوان «ألسنة المفترين».

ففى مقالته «حكم بلابينة» دافع - الشيخ شاكر - عن التاريخ الإسلامى وفنّد فيها الشبهة القائلة: بأن الإسلام لم يطبق إلا مدة رسول الله وأبى بكر وعمر ثم مرج الإسلام واضطرب» فقال: يوشك تاريخ الإسلام أن يكون لهواً على الألسنة ولغواً فى الصحف ومرتعاً للظن المتسرع دون اليقين المتثبت، وهدفاً لكل متقحم على الحق يمثل جراءة الباطل، ومخاضة يخوض فيها كل من ملك لساناً ينطق أو عقلا يفكر أو قلما يخط، وإنما أبتلى زماننا بهذا لأسباب كثيرة، أولها: أن العصر الذى نعيش فيه يُعجل الناس عن تحقيق معنى الدين نفسه فى حقيقة قلوبهم. وآخرها: أن المسلمين فى زماننا بلغوا من العجز والقلة والهوان على أنفسهم مبلغاً مهّد لشياطين الإنس والجن مسالك كثيرة إلى مقر الغرور فى الأفئدة، فسؤل لأصحابها فيما سّول أن فهموا الإسلام «فهما جديدا» فمكان لهذه الكلمة سحرها حين مست مكان الغرور والكبرياء فى نفوسهم، واحتملهم هذا الغرور على أن يسيئوا الظن بما يفهمونه من ماضيهم جملة أو كلمة وخيل إليهم سوء الظن أن ذلك هو طريق الحق لإحياء دين الله فى نفوسهم وإقامة شريعته فى أرضه(٢٨)

وفى مقالته، تاريخ بلا إيمان» رسم المنهج الإسلامى للمؤرخ المسلم الذى ينبغى أن يتبع فى كتابة التاريخ، عامة والتاريخ الإسلامى خاصة، وهاجم بشدة المناهج الوثنية والمادية الغربية التى يتبعها بعض من ينتسبون إلى علم التاريخ(٢٩)

وفى المقالة الثالثة التى جاءت بعنوان «لا تسبوا أصحابى» نافح عن الصحابة الكرام وكشف عن العديد من الشبهات التى يرددها بعض كتاب التاريخ حول حياة الصحابة وجهادهم وتاريخهم(٣٠)

وفى مقالته الرابعة وعنوانها «ألسنة المفترين» كشف زيف بعض المؤرخين الذين يحاولون تشويه صورة الصحابى الجليل معاوية بن أبى سفيان ورد الفرية التى تقول بأن معاوية لم يكن يكتب الوحى لرسول الله -ﷺ- ولكنه كان يكتب له رسائله(٣٠)

وكتب الشيخ شاكر أيضا فى «اللواء الجديد» للأستاذ فتحى رضوان عندما صدرت عام ١٩٥٠.

(وفى خلال عامى ١٩٧٠/٦٩ يكتب الشيخ شاكر فى مجلة «المجلة» ليحيى حقى سبع مقالات بعنوان: «نمط صعب ونمط مخيف» التى أصدرها فى كتاب بهذا العنوان فيما بعد وكلها تدور حول قصيدة الشاعر «تأبط شراً التى مطلعها: إن بالشِّعْب الذى دُونه سَلْع لقتيلا دمه ما يُطَلّ(٣٢)

ومن الصحف التى كان للشيخ شاكر فيها بعض الاسهامات مجلة «الكاتب» لأحمد عباس صالح، كالمقال الذى كتبه بعنوان «كانت الجامعة هى طه حسين»(٣٣) ومقالاته فى مجلة «الهلال» وفى صحيفة الأهرام» ومنها:

«المستشرقون وقضية الشعر» وقد رد فيه على الدكتور عبد الرحمن بدوى الذى سكت دهراً ونطق هزلا وأراد أن يدافع عن أستاذه طه حسين فى قضية الشعر الجاهلى محاولاً الاستشهاد بلغوى وأديب عربى كبير هو ابن سلام على صحة دعواه، وكانت «الأهرام» بعد أن نشرت كلام الدكتور بدوى هذا، نشرت مقالة الشيخ شاكر الذى أتى على كل دعاوى الدكتور - بدوى وأبان عن خطئها وماتنطوى عليه من مغالطات وقام بتبرئته ابن سلام مما نُسب إليه زوراً، وذلك فى عام ١٩٨٢(٣٤).

هذه الفترة هى التى أعطى فيها الشيخ محمود محمد شاكر للصحافة المصرية بعض جهده وإذا كان لى من ملاحظات على تلك الفترة فإنها تتمثل فيما يلى:

(١) تعدد المعارك الفكرية والأدبية عبر الصحف.

(٢) ظهور أعداد من الأدباء والشعراء أثروا الحياة الأدبية فى مصر وظهور العديد من المجلات الفكرية والأدبية لكبار الأدباء والمثقفين.

(٣) الاحتلال البريطانى من أكبر الدوافع إلى ظهور الحركات السياسية والأدبية مما كان له أكبر الأثر فى جلاء الاحتلال وتنامى الوعى الثقافى والأدبى.

وفاتـــه:

وفى يوم الخميس السابع من أغسطس عام ١٩٩٧ توفى الشيخ شاكر بعدفترة معاناة مع المرض،وتلقى الجميع نبأ وفاته بحزن شديد على فقد هذا العلم الشامخ فى سماء الأدب والفكر والثقافة والدين، بعد حياة حافلة بالعلم والعمل، والجهاد والكفاح، من أجل الحق الذى آمن به وعاش عليه وصدق الله إذ يقول «من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ومابدلوا تبديلا، ليجزى الله الصادقين بصدقهم . . »(٣٥).

الصحف التي كتبت عن الشيخ شاكر:

ولم تهتم الصحافة اليومية كثيراً بنبأ وفاة الشيخ محمود شاكر، فقد نشرت «الأهرام» خبر الوفاة فى اليوم التالى فى صفحتها الأولى مصحوبا بصورة له، بينما رأينا صحيفة «الأخبار» تنشر الخبر فى اليوم التالى فى صفحاتها الداخلية على عمود مصحوباً بصورة أيضا أما «أخبار اليوم» فلم تشر إلى الخبر من قريب أو بعيد يشترك معها فى هذا الموقف صحيفتا «الجمهورية» و«المساء» !!والحقيقة، أنه إذا كانت الصحافة اليومية لم تعبأ كثيرا بخبر وفاة الشيخ إلا أنها – والحق يقال – ومن خلال الصفحات الأدبية والدينية وفّت الرجل بعض ما يستحقه ، وهذا ما سوف نلمسه من خلال وقوفنا على الأسطر التالية.

ولقد كانت صحيفة «الأهرام» سباقة فى هذا المضمار، فكتب سامح كريم فى صفحة «الأهرام الأدبى» يقول: فجعت بخبر وفاة أستاذنا العالم الجليل محمود محمد شاكر. . . إنه برحيل هذا العالم الجليل نودع عصراً بأكلمه من الثقافة العربية الإسلامية الأصيلة، لغة، وأدبا ونقدا، فهذا القلم الجبار الذى كان يملأ أفئدة عارفيه رهبة وخشية بما يتخيلون عنه من حدة فى الطبع وعنف فى القول وشدة فى الرأى، لكنه مع المقربين إليه غير ذلك تماما، فيرونه على حقيقته السمحة حين يشايع حقا أو يدفع ظلما أو يواجه طغيانا سرعان ما تنطوى نفسه على إنسانية شامخة تتوهج فيها رقة العاطفة مع صلابة الموقف وتتقد فيها رهافة الشعور مع قوة الشكيمة وتمتزج فيها محبة الحياة مع رفض كل ما فيها من ضعف وعجز. . . (٣٦)

هذه كلمات تنم ولا شك عن تقدير عميق لقيمة الشيخ شاكر ومكانته الأدبية والعلمية، الأمر الذى دفع الكاتب أن يصفه بأنه آخر الحرس القديم للثقافة العربية الأصلية.

وكتب الدكتور عبد العزيز شرف فى صفحة «الأدب» بصحيفة الأهرام يقول: كان الأستاذ الفاضل شيخ المحققين وسليل المدرسة الشاكرية، وقد فقدت العربية بوفاته ركنا كبيراً وسند قويا وعلما فذاً وحجة فى العربية منقطع النظير(٣٧)

وكتب أيضا فاروق جويدة فى صفحة «دنيا الثقافة» فى الأهرام ينعى الشيخ فقال: رحل آخر الشيوخ الكبار، رحل أبو فهر، الذى قضى ٨٨ عاماً عاش معظمها مدافعا عن العربية، منافحا عن قيمتها الفكرية حتى عرف بأحد حراس العربية وهويتها فى العصر الحديث، عرف طه حسين واختلف معه وعرف مصطفى صادق الرافعى وائتلف معه، ولم يكن يخشى فى الحق لومة لائم، إذ عرف محنة السجن مرتين لإصراره على قيمه الفكرية وهويته العربية والإسلامية. (٣٨)

وإذا كانت الصفحات الأدبية والثقافية فى صحيفة الأهرام نعت الشيخ شاكر على النحو الذى قدم الباحث، فإن الصحيفة فتحت صفحاتها لبعض

تلاميذ الشيخ ومريديه ليكتبوا عنه، منهم الدكاترة: بدوى طبانة وناصر الدين أسد ويحيى الرخاوى ومحمد إبراهيم الفيومى وحلمى القاعود ومحمود الطناحى الذى كتب ينعى الشيخ تحت عنوان: «وداعاً محمود شاكر. . . والديار التى خلت» «فصدر مقالته بقول الشاعر:

قالوا الإمام قضى نحبه

وصيحة من قد نعاه علت

فقلت فما واحد قد مضى،

ولكنه أمة قد خلت.

وأضاف الطناحى قائلا: ليس فى وصف محمود شاكر بأنه أمة وحده، شئ من استرسال القلم بدواعى الشجن لحادثة الموت وفوت الأمانى بطلب البقاء، فإن سيرة هذا الرجل تنطق بأنه واحد فى هذا العصر، فلا يشبهه أحد من أدباء زماننا، وماظنك بأديب قرأ كتب العربية فى فنونها كلها، لا أستثنى فنا ولا علما، أقول قولى هذا غير شاك ولا متردد، فقد خالطت «محمود محمد شاكر» ثلاثين عاما وخبرت سواده وبياضه، وعرفت علنه وأطلعنى على كثير من سره ونظرت فى مكتبته الضخمة فإذا على كل كتاب منها تعليق أثر قراءة ونظر وتعليق(٣٩)

وكان الأستاذ رجاء النقاش من أكثر الذين كتبوا فى الأهرام عن حياة الشيخ شاكر وفكره، إذ كتب خمس مقالات الأولى بعنوان «الباشا» حكى فيها قصة هذه التسمية، وهى باختصار أن عباس حلمى خديو مصر ذهب إلى الشيخ محمد شاكر ليهنئه على مولوده وعندما سأل عن اسم المولود قال الوالد هو محمود سعد الدين. فقال الخديو: بل هو محمود باشا، فصار يعرف بين الأهل والأصدقاء بهذا الوصف(٤٠)

وكانت المقالة الثانية بعنوان: «قلت لهم رأيى فضربونى» يحكى فيها قصة اعتقال الشيخ شاكر ومواقف ومشاهد وقعت له أثناء الاعتقال(٤١) والمقالة الثالثة بعنوان: «أسرار الانتحار» يقص فيها طرفا من لحظات الضعف البشرى فى

حياة العظماء ومنهم الشيخ شاكر الذى حاول الانتحار وهو فى بداية شبابه(٤٢)

والرابعة بعنوان : «بطيخة المتنبى» يكشف فيها الكثير من الآراء حول شخصية هذا الشاعر العربى الكبير، ودور الشيخ شاكر فى ذلك(٤٣)

أما الخامسة والأخيرة فهى بعنوان «كلام العاشقين» ويحكى فيها رؤيته عن قصة حب المتنبى لـ «خولة» أخت سيف الدولة وموقف الشيخ شاكر من حقيقة هذه العلاقة وقصة الخلاف الدائرة بين المؤرخين والأدباء بشأنها(٤٤).

أما صحيفة «الأخبار» فقد كتب مصطفى عبد الله فى صفحة «أخبار الأدب» تحت عنوان «وداعا صاحب القوس والعذراء» وصف الكاتب الشيخ شاكر بأنه يُعد وحده حصنا من حصون الثقافة العربية ورمزا لما يجب أن يكون عليه المفكر الحر المستنير(٤٥)

وفى عمود «ملامح شخصية» فى جريدة الجمعة بصحيفة «الأخبار» كتب محمود عطيه تحت عنوان: «شاكر إمام المحققين» بدأ ثورته العلمية بطه حسى» يقول عنه: الشيخ شاكر إمام المحققين صاحب وجوه متعددة، فهو المبدع والمحقق والناقد والشاعر وكاتب المقال بل والمجاهد بالفعل وبالقول وقد كلفه ذلك كثيرا من نفسه وعمره(٤٦)

وكتب الدكتور أحمد عرفات القاضى فى «ملامح شخصية» تحت عنوان «الحبر أبو فهر عندما ترك الجامعة. . ليطمئن قلبه» قال: رحل عنا فى هدوء تام علم من أعلام الفكر والنهضة فى عالمنا العربى والإسلامى وإمام من أئمة اللغة والأدب والثقافة وفارس من فرسان الشعر، تطاول قامته قامة كبار الأئمة والعلماء فى تراثنا أمثال سيبويه والطبرى وعبد القاهر الجرجانى وغيرهم ممن ملأوا الدنيا وشغلوا الناس ذلكم هو العلامة الحبر أبو فهر محمود محمد شاكر الذى رحل عن عالمنا الفانى(٤٧)

وإذا كانت صحيفة «الأخبار» قد نشرت خبر وفاة الشيخ، وأفسحت المجال وفتحت صفحاتها المتخصصة كى يكتب الكاتبون والصحفيون عن محمود

شاكر فإن صحيفة «أخبار اليوم» لم تنشر إلى هذا الحدث لا من قريب ولا من بعيد (٤٨)

اشترك فى هذا الموقف أيضا صحيفة «المساء» فلم تكتب شيئا مذكور عن وفاته ولا عن حياته.

أما صحيفة «الجمهورية» فلم تنشر خبر وفاة الشيخ شاكر، وكأنها لم تعلم بذلك، ولا أشك فى أن الصحيفة يمكن أن تكون قد تجاهلت الخبر بدليل أن الصحيفة نفسها نشرت بعد ذلك تحقيقا عن الشيخ بعناوين: «التراث الإسلامى فى حاجة إلى من يملأ فراغ محمود شاكر» «البيئة العلمية للمحقق الأول هى التى رسمت طريقه» «معاركه الأدبية ودفاعه عن الإسلام جعلت منه عالما بارزاً» جاء فى هذا التحقيق ما يلى: ليس سهلا على المشتغلين بقضايا الإسلام واللغة العربية أن يمضى من بينهم العلامة محمود شاكر دون أن يذكروا شيئا مما قدمه للقرآن الكريم لغة وعقيدة وشريعة، فقد عاش الرجل لهذه القضية بأجزائها الثلاثة وأدخل إليها الأدب بيسر وسهولة لأن القرآن نموذج الأدب الكامل الذى لانموذج فوقه(٤٨)

وكتب عبد اللطيف فايد فى عموده الأسبوعى «خواطر إسلامية» مرتين، الأولى بعنوان: «النموذج الأمثل فى تحقيق التراث»(٤٩) والأخرى بعنوان: «تحقيق التراث ومشاعر الوفاء»(٥٠)

ومن المجلات والصحف الأدبية التى اهتمت بالشيخ شاكر وحادث وفاته، مجلة «الهلال» الشهرية وصحيفة «أخبار الأدب» الأسبوعية.

فقد خصصت «الهلال» جزءاً خاص عن الشيخ شاكر قبيل وفاته بمناسبة العيد الثامن والثمانين لميلاده، وكتب فى هذا العدد الدكاترة: فهر محمود شاكر تحت عنوان: «أبى محمود محمد شاكر» والطاهر أحمد مكى كتب بعنوان: «معالم هادية على طريق سيرة عطرة» ومحمود الربيعى «ذكريات حميمة» ومحمود الطناحى «محمود شاكر ومنهجه فى تحقيق التراث» ومحمد عبد اللطيف حماسة «نمط صعب من العلاقة بين وزن الشعر ومادته عند

الأستاذ، محمود محمد شاكر» وعبد اللطيف عبد الحليم «أبو فهر عاشق الشعر العربى»(٥١)

ونشرت «الهلال» بعد وفاة الشيخ شاكر مقالة لابن أخيه الكاتب الصحفى عبد الرحمن شاكر بعنوان: «محمود محمد شاكر فنان الكلمة العربية» جاء فيها: أما وصفى إياه فى عنوان هذه الكلمة بأنه . . فنان الكلمة فقد سمعته يصف نفسه بذلك ليحيى حقى فى مباسطة بينهما بعد فراغهما من تدارس لفظة عربية، قال له: أنا فنان يا يحيى . . . ومعرفتى بالعربية معرفة أصيلة . . . فقد كان فنانا حين يكتب أو ينظم أو يحقق واحدا من كتب التراث كان يفعل ذلك عن شغف عظيم بلغة العرب، وحرص شديد على صحة التعبير بها ودقته.(٥٢)

أما صحيفة «أخبار الأدب» فقد نشرت على صدر صفحتها الأولى رسما لصورة الشيخ شاكر على مساحة ٢٠× ٣٠سم وكتبت فى أسفلها العلامة الراحل محمود شاكر بريشة الفنان جودة خليفة، كما نوهت فى الصفحة الأولى أيضا عن الموضوعات التى تتناولها عن الشيخ بعنوان فرعى باللون الأسود «ورحل محمود شاكر» وعنوان رئيسى باللون الأحمر «إمام البعث والإحياء» وكتب جمال الغيطانى عموده «نقطة عبور» بعنوان: «وداعاً شيخنا المعتزل» جاء فيه: . . . كان شيخا جليلا، مهيبا قوياً، يقيم فى أحد العنابر المكتظة بالإخوان المسلمين، وقد اعتقل فى ٣١ أغسطس سنة ١٩٦٥، وقضى عامين ونصف العام، ثم خرج فى ٣٠ ديسمبر ٦٧ كان متوسط عدد المعتقلين فى العنبر الواحد مائة وخمسين أو أكثر وهذا عدد ضخم جداً بالنسبة للمساحة الضيقة، كان الباب يفتح فى الصباح وبعد الإفطار مباشرة يدخل علينا الشيخ شاكر مرتديا ملابس المعتقل البيضاء، ويمكن القول أنه أكثر المعتقلين الذين رأيتهم أناقة، كان نظيف الثياب، مرتبا، متين البنيان جهورى الصوت واثق الحضور وعلمه غزير(٥٣).

كما كتب مصطفى عبد الله عموده «إطلالة على الساحة» عن الشيخ

جاءت بعنوان: «نمط صعب . . نمط فريد» جاء فيه: كان الشيخ محمود شاكر، رحمة الله عليه نمطاً فريدا من البشر مختلفا عن الصورة التى رسمها الكثيرون له من منطلق أنه انقطع للتنقيب فى التراث القديم واكتشاف كنوزه وعيونه والعكوف على تحقيقها وتقديمها لقارئ هذا الزمان(٥٤)

وفى الصفحات الداخلية من «أخبار الأدب» كتبت بركسام رمضان تحقيقا صحفيا على صفحتين عن الشيخ واختارت له عناوين «الرجل الذى طوى القرن» «رحل محمود شاكر إمام البعث والإحياء» «عقاب العربية الأول» !!(٥٥)

وعرض كل من إيهاب فتحى ومحمود الوردانى ويحيى مختار على مساحة صفحتين داخليتين أربعة من الكتب التى كتبها الشيخ شاكر ككتابه: «الطريق إلى ثقافتنا» أو من الكتب التى كتبت عنه ككتاب: «دراسات عربية وإسلامية» لمجموعة من الباحثين و«أبو فهر محمود محمد شاكر بين الدرس الأدبى والتحقيق» لمحمود إبراهيم الرضوانى و«محمود محمد شاكر الرجل والمنهج» لعمر حسن القيام(٥٦).

وبعد، فإن العلامة محمود شاكر بما قدم من خدمات واسهامات أدبية فى مجال الصحافة وفى تحقيق التراث العربى، كان جديراً بكل تقدير، ولذلك رأيناه عضواً بارزاً فى مجمع اللغة العربية، وقد نال جائزة الدولة التقديرية، ونال أيضا جائزة الملك فيصل العالمية، ولم يكن لدى الشيخ سلاح يشهره فى وجه مخالفيه سوى سلاح الفكر والكلمة، ومن هنا كانت الكلمة عنده لها مكانتها ومنزلتها، وفى ذلك المعنى يقول: صارت الكلمة عندى هى الحياة نفسها،وهى نفسى، هى عقلى ، هى فكرى، هى سر وجودى ووجود ماحولى. . . لقد عرفت عن طريق الكلمة العربية أن الحضارة كلها والثقافة كلها، بعلومها وآدابها وفلسفتها، عالة على الكلمة، فلولا الكلمة لما كان لشئ من ذلك وجود يعقل(٥٧)

ولم يكن الشيخ شاكر يهدف من وراء كتابته إلا الدفاع عن اللغة والدين، وهذا ما أبان عنه فى مقدمة المقالات التى كتبها فى «الرسالة» فى الرد على لويس عوض: يقول: ولهذه الفصول غرض واحد وإن تشعبت إليه الطرق

وهذا الغرض هو الدفاع عن أمة برمتها، هى أمتى العربية والإسلامية، وجعلت طريقى أن أهتك الأستار المسدولة التى عَمِل من ورائها رجال فيما خلا من الزمان ورجال آخرون قد ورثوهم فى زماننا، وهمهم جميعا، أن يحققوا للثقافة الغربية الوثنية كل الغلبة على عقولنا، وعلى مجتمعنا وعلى حياتنا وعلى ثقافتنا، وبهذه الغلبة يتم انهيار الكيان العظيم الذى بناه آباؤنا فى قرون متطاولة، وصححوا به فساد الحياة البشرية فى نواحيها الإنسانية والأدبية والأخلاقية والعملية والعلمية والفكرية وردوها إلى طريق مستقيم، علم بذلك من علمه وجهله من جهله(٥٨)

نتائج الدراسة:

هذه إطلالة سريعة على جهود العلامة محمود محمد شاكر فى الصحافة المصرية، ومن خلال الصفحات السابقة يمكن للباحث أن يستخلص مجموعة من النتائج أمكنه التوصل إليها وأهمها مايلى:

١- أن البيئة الأسرية التى ينشأ فيها الكاتب فى بداية حياته، لها تأثير كبير على تكوينه الفكرى والعقلى مما ينعكس فيما بعد على عطائه، ونتاجه.

٢- البداية المبكرة للكاتب ومشاركته فى الكتابة والمعارك الأدبية، تكسبه بمرور الأيام دربة ومرانا وتصقل موهبته وتزيد من تجاربه، مما يجعله فى نهاية المطاف على قدر كبير من البراعة والاتقان.

٣- أن البيئة المجتمعية التى يكثر فيها الجدل والنقاش وتُطرح فيها الأفكار الجديدة وأحيانا الغربية تدفع صاحب الفكر الراسخ والهمة العالية إلى التصدى والتحدى لهذه الأفكار.

٤- توصلت الدراسة إلى أن عطاء الشيخ شاكر واسهاماته فى الصحافة كان متنوعاً ما بين الدراسات الأدبية من شعر ونثر والدراسات النقدية.

٥- كشفت الدراسة عن مدى سعة أفق الشيخ شاكر وعمق وعيه ومرونة فكره، حيث أنه قد أسهم بالكتابة فى عدد من المجلات الأدبية والإسلامية التى قد لا يتفق منهجه مع سياستها مثل مجلة الكاتب ذات الميول اليسارية

والمسلمون ذات الميول الإخوانية.

٦- أكدت الدراسة على أن الشيخ شاكر كان من أقوى المدافعين عن الشعر العربى القديم القائم على إلتزام الوزن والقافية وهو مايعرف بالشعر العمودى، وهذا ماظهر واضحا من خلال القصائد على نشرها فى الصحف والمجلات وديوانه الوحيد المسمى بـ «القوس العذراء» وأيضا من خلال مجموعة المقالات التى كتبها فى مجلة «المجلة» تحت عنوان «نمط صعب ونمط مخيف».

٧- أبرزت الدراسة تصدى الشيخ شاكر بقوة للذين يسيئون فهم التاريخ الإسلامى ومنافحته عن الصحابة ودفعه للاتهامات الزائفة الموجهة إليهم ومحاولته وضع إطار أو منهج لكتابة التاريخ الإسلامى مع مطالبته بإعادة كتابته وتخليصه مما شابه على يد المؤرخين المدلسين.

٨- كشفت الدراسة عن المواجهة القوية للشيخ شاكر ووقوفه فى وجه المحاولات المستميتة للتغريب فى مجال الفكر والثقافة واللغة، وقيامه بتفنيد كل الأباطيل التى حاول التغريبيون زرعها ونشرها فى البلاد العربية والإسلامية.

٩- توصلت الدراسة إلى أن الشيخ شاكر، برغم أهمية الدور الذى أداه فى الصحافة المصرية، إلا أنه إذا قيس بغيره، يعتبر قليلا، وذلك بسبب العزلة التى فرضها الشيخ على نفسه.

التوصيات:

١- العمل الجاد على جمع تراث الشيخ شاكر المنشور فى الصحافة المصرية، وإعادة طبعه حتى ينتفع به ويطلع عليه أبناء هذا الجيل والأجيال القادمة.

٢- دراسة منهج الشيخ فى الكتابة، من حيث اللغة والأسلوب، وآليات الكتابة.

٣- تشجيع شباب الباحثين ودعوتهم لتسجيل أطروحاتهم العلمية حول

حياة الشيخ شاكر وجهوده الفكرية والأدبية والنقدية.

٤- قيام وسائل الاعلام المختلفة من صحافة وإذاعة وتليفزيون وغيرها - بتقديم شخصية الشيخ شاكر إلى شباب اليوم كمثال وأنموذج يجب أن يحتذى فى طلب العلم والاشتغال بالفكر والمعرفة.

٥- دعوة الباحثنين للتنقيب فى تراثنا الصحفى لكشف مابه من كنوز، سجلها عبر صفحاتها كثير من الكتاب، وهى مطمورة حتى الآن، لم تجد من يجمعها ويقدمها لقراء العربية اليوم، وتقديم دراسة وافية عنها وعن أصحابها.

المراجـــع والهوامـــش

١-الطاهر أحمد مكى، معالم هادية على طريق سيرة عطرة، الهلال، فبراير ١٩٩٧، ص ٦٩.

٢- أخبار الأدب، العدد (٢١٤)، ١٧ أغسطس ١٩٩٧، ص ٧

٣- عبد الرحمن شاكر، محمود محمد شاكر فنان الكلمة العربية، الهلال، سبتمبر ١٩٩٧، ص ٢٣.

٤- عبد الباسط محمد حسن، أصول البحث الإجتماعى، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الثامنة، ١٩٨٢، ص ١٩٨ ومابعدها.

٥- عبد الباسط حسن، السابق نفسه، ص ٢٢١.

٦- هو محمود بن محمد بن شاكر بن عبد القادر من أسرة أبى عَلْياء من أشراف جرجا بصعيد مصر، وينتهى نسبه إلى الإمام الحسين بن على رضى الله عنهما، ولد فى الإسكندرية ١٠ المحرم ١٣٢٧هـ أول فبراير سنة ١٩٠٩.

٧- سوف تقتصر الدراسة على الصحف والمجلات التى ساهم فيها الشيخ محمود شاكر بالكتابة، قبل وفاته، ثم الصحف التى تحدثت عن الشيخ بعد وفاته وهى الصحف القومية اليومية: الأهرام، الأخبار، أخبار اليوم، الجمهورية، المساء، الهلال، أخبار الأدب.

٨- تلقى الشيخ شاكر أول مراحل تعليمه فى مدرسة الوالدة أم عباس فى القاهرة، عام ١٩١٦ وبعد ثورة ١٩١٩ انتقل إلى مدرسة العِربيّة بدرب الجماميز، وفى سنة ١٩٢١ دخل المدرسة الخديوية الثانوية.

٩- لقد تأكد للشيخ شاكر أن الدكتور طه حسين يردد فى قضية الشعر الجاهلى كلام المستشرق الانجليزى مارجليوث، ولكن الدكتور طه لم يستطع أن يبوح بأن ما أسماه منهجاً علميا، ونسبه إلى نفسه، كان مجرد سطو غير كريم على كلام المستشرق مارجليوث . . . وفى تلك اللحظة سقط معنى الجامعة فى

نفس الشيخ شاكر، وأصبح أنقاضا وركاما فيما يقول: فقرر أن يترك الجامعة إلى الأبد. راجع: الطاهر أحمد مكى، الهلال، مرجع سابق، ص ٧١.

١٠- محمود شاكر، يوم تهطال الشجون، الزهراء، العدد الثالث، السنة الثالثة ربيع الأول ١٣٤٥هـ، ص ١٦٢-١٦٥.

١١- محمود شاكر، الناسخون الماسخون، الزهراء، العدد الرابع، السنة الرابعة، جمادى الثانية، ١٣٤٦ هـ، ص ٢٤٥.

١٢- محمود شاكر ، النجم الواتر والصبح الثائر، الزهراء، العدد الثامن، السنة الرابعة، شوال ١٣٤٦ هـ، ص ٥٤٢-٥٤٣.

١٣- محمود شاكر ، الزهراء، العدد الثامن، السنة الثالثة، شعبان ١٣٤٥هـ، ص ٥٠٢-٥٠٩ص وأيضا: الزهراء، العدد التاسع. السنة الثالثة، رمضان ١٣٤٥ ، ص ٥٦٢-٥٧٠ وأيضا: الزهراء، العدد العاشر، السنة الثالثة، ذو الحجة ١٣٤٥هـ، ص ٦٣٢-٦٣٨.

١٤- نشأ الشيخ شاكر في بيت علم وجهاد، فوالده هو الشيخ محمد شاكر وكيل الجامع الأزهر، وأحد تلامذة الإمام محمد عبده وأحد الذين أسهموا واشتركوا بقوة في ثورة ١٩١٩، فهو عالم فقيه، وكاتب سياسي، ذائع الصيت، في تلك الحقبة الهامة من تاريخ مصر، وأخوه الشقيق الأكبر هو الشيخ أحمد شاكر المحقق الكبير والفقيه، وإمام علماء الحديث في عصره، راجع: عبد الرحمن شاكر، الهلال، سبتمبر ١٩٩٧، ص ١٦.

١٥- الطاهر أحمد مكى، الهلال ، مرجع سابق، ص ٧٣.

١٦- فؤاد صروف، المقتطف، الجزء الأول، المجلد (٨٩) ٦ شوال ١٣٥٤، ١ يناير ١٩٣٦ ، ص ١-٦

١٧- الطاهر مكى، الهلال، مرجع سابق، ص ٧٤.

١٨- الطاهر مكى السابق نفسه، الصفحة نفسها.

١٩- السابق نفسه، ص ٧٥.

٢٠- السابق نفسه، الصفحة نفسها.

٢١- محمود شاكر، الطريق إلى الأدب، الدستور، العدد (٣٨٥) ٩ مايو ١٩٤٠، ص ٨

٢٢- محمود شاكر، فوضى الأدب وأدب الفوضى، الدستور، العدد (٧٦٤) ١١ يونية ١٩٤٠، ص ٨.

٢٣- محمود شاكر، الأدب والحرب، الدستور، العدد (٧٧١) ١٨ يونيو ١٩٤٠، ص ٦-٨.

٢٤- محمود شاكر، كيف ينبغي أن نعمل، موقف رجل، الدستور، العدد (٧٧٧) ٢٥ يونيو ١٩٤٠، ص ٨.

٢٥- السابق نفسه، الصفحة نفسها.

٢٦- محمود شاكر، تجديد التاريخ المصرى ساعة واحدة، الدستور، العدد (٧٩١) ١٢ يولية ١٩٤٠، ص ٨.

٢٧- محمود شاكر، لا تبكوا ولا تنوحوا، الدستور ، العدد (٧٦٣) ٥ يونيو ١٩٤٠، ص ٨.

٢٨- محمود شاكر، حكم بلا بينة، المسلمون، العدد الأول، السنة الأولى، ٣٠ نوفمبر ١٩٥١، ص ٤٢-٤٨.

٢٩- محمود شاكر، تاريخ بلا إيمان، المسلمون ، العدد الثانى، السنة الأولى، ١ يناير ١٩٥٢، ص ١٣٨-١٤٥.

٣٠- محمود شاكر، لا تسبوا أصحابى، المسلمون، العدد الثالث، السنة الأولى، ٢٨ يناير ١٩٥٢، ص ٢٤٦-٢٥٥.

٣١- محمود شاكر، ألسنة المفترين، المسلمون ، العدد الرابع، السنة الأولى، ١ مارس ١٩٥٢ ص٣٥١-٣٥٩.

٣٢- الكتاب صدر عن دار الخانجى، القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٨٢، ويرى الباحث أن هذا العنوان، يصلح أن يكون معبراً تعبيراً صادقاً عن طبيعة

شخصية الشيخ شاكر، فهو نمط صعب من الرجال، يندر أن نجد له أنداداً فى عصره، ونمط مخيف، يخيف هؤلاء الذين تسول لهم أنفسهم أن يتجرؤا على علوم اللغة والشريعة والأدب والتاريخ.

٣٣- محمود شاكر،كانت الجامعة هى طه حسين، الكاتب، العدد (١٦٨) مارس ١٩٧٥، ص ٢٨.

٣٤- محمود شاكر، المستشرقون وقضية الشعر، الأهرام، ٣٠ إبريل ١٩٨٢ ، ص ١٧.

٣٥- سورة الأحزاب الآية (٢٣-٢٤)

٣٦- الأهرام، ١٩٩٧/٨/١٢

٣٧- الأهرام، ١٩٩٧/٨/١٥

٣٨- الأهرام، ١٩٩٧/٨/١٧.

٣٩- الأهرام، ١٩٩٧/٨/٢٢

٤٠- الأهرام، ١٩٩٧/٨/١٨

٤١- الأهرام، ١٩٩٧/٨/٢٥

٤٢- الأهرام، ١٩٩٧/٩/١

٤٣- الأهرام، ١٩٩٧/٩/٨

٤٤- الأهرام، ١٩٩٧/٩/١٥

٤٥- الأخبار، ١٩٩٧/٨/١٣

٤٦- الأخبار، ١٩٩٧/٨/١٥

٤٧- الأخبار، ١٩٩٧/٨/٢٢

٤٨- أخبار اليوم، ١٩٩٧/٨/٩

٤٩- الجمهورية، ١٩٩٧/٨/٩

٥٠- السابق نفسه

٥١- الجمهورية، ١٩٩٧/٨/٢٢

٥٢- الهلال، فبراير ١٩٩٧

٥٣- الهلال، سبتمبر ١٩٩٧

٥٤- أخبار الأدب، العدد (٢١٤)، ١٧ أغسطس ١٩٩٧، ص ١، ٣
ويذكر فى هذا الصدد أن الشيخ محمود شاكر أعتقل مرتين أثناء حكم الرئيس الأسبق جمال عبد الناصر، كانت المرة الأولى مدتها تسعة أشهر فى الفترة من ١٩٥٩/٢/٩ إلى أكتوبر ١٩٥٩. والأخرى مدتها ٢٨ شهراً من ٣١ أغسطس ١٩٦٥ حتى ١٩٦٧/١٢/٣٠ راجع : دراسات عربية واسلامية، مطبعة المدنى، القاهرة، الطبعة الأولى ، ١٩٨٢ ص ١٠.

٥٥- أخبار الأدب، السابق نفسه، ص٤.

٥٦- السابق نفسه، ص ٧، ٨

٥٧- السابق نفسه، ص ١٤، ١٥.

٥٨- محمود شاكر ، أباطيل وأسمار، مكتبة المدنى، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٦٥، ص ٥٥٩.

سماء الخلود

مهداة إلي روح شيخ العربين العلامة الشيخ محمود شاكر

من ســمــاء الخلود من وهجـه	من عـيـون التـراث من مُـهـجـه
أقـبس الشـعـر وهو قـربان روحى	وأذيب الوفــاء فى أرضــه
وأنا والقـــريض فى حـــرج	لم نزل نستـاف من حـرجـه
إيه . . يا شـيخنا الأجل. وهذا	أزهر النور بالمعـانى حـفى
أنت منه رسـالة ورسـول	وانبـعـاث وفلذة ودوى
لا يفـيك الثناء وهو وفى	أنت يا «شـاكـر» وفىّ وفىّ
يا أبا الفكر لا يضـام تراث	أنت صـمـصـامـه القوى الأبى
أنت أيقظتـه فـأيقظت روحـا	«عـمـريا» كـفـاحـه «عـمـرى»
صـارمـا مـثل صـولة الحق تجلو	كل زيف فـحـده «عـبـقـرى»
كنت فـينا «أبا حنيـفـة» بمصر	تشـقـب الرأى وهو هادٍ سـرى
فـتـزيل الضـبـاب وهو عـتى	لم يعـد بعـد وهو هذا العـتى
موقف . . بل مواقف كنت فيها	لم تكن من سـواك تقـتـطف
فى نظيـر الشبـاب والعلم . .لما	قـد رأيت الأسـتـاذ ينحـرف
يوم قال «الدكـتـور» قولتـه النكر	اء . . بات الفـؤاد يرتجـف
كنت مـوسى عـصـاه تلقف مـا	صنعـوه فـالزيف ينكشف
وأبت نفـسك الأبيـة درسـا	يجـهـد الحق فى خطاه ويغـفـو
واختلفـتم وكـان نهجك أزكى	أنت دومـا أعف منه وتعـفـو
أنا ياقلعـة التـراث نبـات	قـد رعـاه التـراث حتى أقـامـه
عـمـره الذوق والثـقـافـة والشـعـ	ـر وفـيض من السنا والكرامـة
قـد تربى على مـوائدك الحـو	ر . . وأرسى شراعـه واعـتـزامـه
وقـرأت الأسـفـار سـفـرا فـسـفـرا	ونهلت البـيـان حتى ختـامـه

ولأعمالك الفصاح حضور ... ولها فى الخلود تاج الزعامه

قد قرأت «الإمتاع» و«المتنبى» ... وأرى «القوس» فى القريض علامه

ثم «فصل العطاء» و«النمط الصعب» ... «وأسماركم» رفيف ابتسامه

فى التفاسير والحديث.. وفى الفقه ... عطاء سبقت فيه «قدامه»

وسواها .. وقد قرأت سواها ... أنت فيها الإمام أصل الإمامه

عشت ماعشت فارسا يرفض الضيم ... ويأبى حديثه . واستماعه

فإذا الحق فى ضمانك جيش ... فى صميم الحياة يحدو شراعه

وإذا الفن والحضارة والآداب ... تحيا .. وتستظل يراعه

وإذا هذه المعانى .. جميعا ... تجد الأمن رافلا والشجاعه

يا أبا «فهرنا» العزيز علينا ... فهو فئ العلا وفئ البراعه

نحن فى زحفك المضيئ قلوب ... ينسج الحب عمرها والنصاعه

جئت أشكو إليك بعض همومى ... إن نفسى بحملها مرتاعه

نحن أسرى غرامنا بقضايا ... غيرنا .. رغم نقص المناعه

فنعب الكؤوس منها غبوقا ... وصبوحا فإننا فى مجاعه

وهى ليست لنا .. ولسنا إليها ... يالحى الله عصرنا ومتاعه

لا نرى الشرق والعروبة فيها ... أو نرى روحنا الأشم فراعه

أدب مطفأ .. وروح غبى ... ليس يرضى «ربيعة» أو «فزاعه»

جلبوه مراهقا غجريا ... كل حلف ألقى عليه صراعه

طفحت فويقه جراثيم شر ... وانحلال يبث فينا ضياعه

ومشى فى دمائنا مشية الد ... اء .. وزكى وباءه الخلاعه

نحن يا سيدى ومثلك يرجى ... بظروف كهذه ملتاعه

قد حمدنا السرى إليك صباحا ... لنرى فيه شعبنا وابتداعه

دكتور

سعد عبد المقصود ظلام

عميد كلية اللغة العربية – جامعة الأزهر – القاهرة